الأخلاق الإسلامية

وأثرها على الفرد والمجتمع

دكتور

محمد حسن مهدى بخيت

مدرس العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بسوهاج

الأخلاق الإسلامية وأثرها على الفرد والمجتمع

تمهيد :-

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، صاحب الخلق العظيم ، الذى بُعث ليتم للناس أخلاقهم ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ...

فإن من أكرم الفضائل ، وأحسن الشمائل ، خلق يتحلى به الإنسان ، ليعلو به عن مراتب الحيوان ، فالإنسان : دم ولحم وعصب ، والحيوان أيضا كذلك ، يفرق بين الاثنين : الخلق والعقل ، فإذا ما انعدما انعدمت الفروق بينهما ، وصار مثلين متشابهين ، وبالجهل والحمق متلازمين ، غير أن هذا ينطق وذاك لا ، وقد ينطق الإنسان بالفحش حيث لا ينطق الحيوان بفحش ، وحينئذ يكون الصامت خيراً من الناطق ، والساكت خير من المتكلم

هذا وقد نزع فلاسفة العالم إلى البحث والتنقيب عما يخرج الإنسان من هذه المرتبة الدنيئة الوضيعة ، إلى المرتبة السامية الرفيعة ، التى ترفع به عن مصاف الحيوان ، إلى المرتبة التى اختصه البارئ تعالى بها ، وأبدعه من أجلها ، وهي خلافته فى الأرض ، ليبسط فيها العدل الإلهي ، والخلق الفاضل الذى جبله الحق تبارك وتعالى عليه ، ووهبه أداته وهو العقل ، الذى يحثه على فعل الفضائل وينفره من اقتراف الرذائل .

وعلم الأخلاق هو علم دراسة السلوك الإنسانى ، وهو يعتبر بحق من أهم العلوم بعد علوم العقيدة والدين ، لأنه من العلوم الوثيقة الصلة بالدين .

وأعظم ما ورثته الإنسانية من أنبيائها وهداتها ومرشديها على مر العصور ، الخلق القويم ، والسلوك المستقيم . والأديان السماوية ما جاءت إلا لتهدى الناس إلى الاعتقاد الحق ، وعمل الخير ، والسلوك الطيب القويم .

ورسول الإسلام ، ـ ﷺ ـ كان فى كل حياته مدرسة أخلاقية يتعلم فيها الناس الفضائل كلها التى تقوم البشر وتحيى إنسانية الإنسان ، لأنها تطهر قلبه ، وتزكى نفسه ، وترقى وجدانه ، وتهذب طباعة ، وتنقى ميوله

وتمنحه القوامة على نزعاته وغرائزه ، وتمـــده بالعـــون علـــى نوازع الشر ، ورسولنا فى ذلك كلـــه إمـــام ورائـــد ومثـــل أعلـــى يحتذى به ، وحيـــن أثنـــى الله ـ تعـــالى ـ عليـــه فـــى قرآنـــه المجيد ، أثنى عليه بعبارة وجيزة غايـــة الإيجـــاز فـــى ألفاظـــها ، ولكنها عميقة غاية العمق فـــى معناهـــا ومرماهـــا ، حيـــث قـــال سبحانه : ﴿ وإنـــك لعلـــى خلـــق عظيـــم ﴾ [1] ولمـــا ســـئلت أم المؤمنين السيدة عائشـــة ـ رضـــى الله عنـــها ـ عـــن خلقـــه ـ ﷺ ـ أجابت : " كـــان خلقـــه القـــرآن " وهـــي تعنـــى بذلـــك أن رسول الله ـ ﷺ ـ قد التزم القـــرآن ســـلوكا ومنـــهجا ، فـــامتثل أوامره ، وانتهي بنواهيه ، أحل حلالـــه وحـــرم حرامـــه ، فكـــانت حياته بذلك ـ تطبيقا عميقا للقـــرآن ، وإن شـــئت فقـــل : " كأنـــه قرآن يمشى على الأرض ويتحرك بيـــن النـــاس " .

وجاء تعبـــير الســـيدة عائشـــة " كـــان خلقـــه القـــرآن " وصفا شاملا لحياة الرسول بكل مـــا فيـــها ، وأبـــان الرســـول ـ ﷺ ـ فى وضـــوح الهدف الـــذى مـــن أجلـــه كـــانت رســـالته المحمدة حين قـــال : " إنمـــا بعثـــت لأتمـــم مكـــارم الأخـــلاق " [2] فالإسلام كله بعباداته ومعاملاتـــه ـ إنمـــا يـــهدف إلـــى تحقيـــق غاية واضحة ومحددة هـــي " مكـــارم الأخـــلاق " تلـــك الشـــريعة

---

١) القلم آية ٤ .

٢) رواه الإمام البخارى فى صحيحه فى كتاب الأدب المفرد والإمام أحمد فى مسنده ٢/٣٨١

التى عمل لها الرسول وحققها فى ذاتـــه ، وضـــرب بـــها المثـــل الأعلى لأمتـــه .

وما أكرمها من غاية ، وذلك لأن مـــن ملـــك زمـــام الخلـــق الكريم ، مـــلك كل شئ ، وإن كـــان لا يملـــك مـــن حطـــام الدنيـــا شيئا ، ومن أفلت من يده هـــذا الزمـــام خســـر كـــل شـــئ ، وإن ملك الدنيا بحذافيرها ، وأكبر مصيبة يمكن أن تصـــاب بـــها أمـــة فى تاريخها ، هي مصيبتها فى الأخلاق ، لأنـــها تعنـــى الانحـــلال والفوضى والضياع . وهـــذا مـــا تعانيـــه كثـــير مـــن دول العـــالم الغربى فى عصرنا الراهن ، حيث تعيـــش خرابـــاً أخلاقيـــاً يـــأتى علـــى الأخضـــر واليـــابس مـــن قيمـــها الفاضلـــة ، ومقومـــات الإنسانية فى أبنائها ، رغم ما ينبهر به السذج مـــن ذلـــك التقـــدم المادي الرهيب فى تلك الأمـــم .

إن هذا التقـــدم المـــادى يخـــدم الجـــانب الحيوانـــى فـــى الإنسان فقط ، أما الجوانب الأخـــرى المعنويـــة والروحيـــة وهـــي قوام حيـــاة الإنســـان الحقيقيـــة ، فذلـــك مـــا يفتقـــده الغربيـــون اليوم ، فالقيم النبيلة التى تحقق الـــترابط والحـــب وتقـــوم علـــى الإيثار والمودة بين الناس فلم يعدلـــها مكـــان فـــى دنيـــا النـــاس هناك . وذلك لأن الفلســـفات الواقعيـــة والوجوديـــة والبرجماتيـــة والشيوعية ونحوها ، هي التى توجـــه ســـلوك النـــاس وأفكـــارهم

هناك ، وعنها ينبثـــق الإلحـــاد الدينـــى الـــذى يقطـــع جميـــع صلات الإنسان بالســـماء .

وأخشى ما أخشـــاه علـــى مشـــرقنا المتديـــن أن يجرفـــه التيار ، كما جرف أمم الغرب مـــن قبلـــه ، ولا ســـيما ونحـــن ـــ هنا ـــ مولعون بتقليد الغرب فى كل شـــئ ، والإلحـــاد والانحـــلال وفوضى الأخلاق هي بضاعتـــه التـــى يحـــرص أعـــداء الإســـلام على الترويج لها فى بلادنا باسم التقدميـــة والمدنيـــة أو الحريـــة الشخصية أو الفكر المفتـــوح ، أو نحـــو ذلـــك مـــن الأســـماء ، ذلك أمر ينبغى أن يتنبه لـــه الدعـــاة إلـــى الله وعلمـــاء الأخـــلاق والمصلحون من المؤمنين فى كل بلـــد إســـلامى [٣]

ولما كانت الأخـــلاق تشـــكل مكانـــاً كبـــيراً مـــن اهتمـــام الإنسان ، وتستحوذ علـــى تفكـــيره أو ينبغـــى أن تكـــون كذلـــك ، فالإنسان لا يستطيع أن يســـتغنى عـــن الأخـــلاق فـــى أى لحظـــة من لحظات حياته ، ولا يســـتطيع أن يســـتغنى عـــن مثـــل أعلـــى فى سلوكه ، أو معيار للحكم على أفعاله وأفعـــال النـــاس بـــالخير أو الشر ، ولا يمكن أن يتصور المرء إنسانا يعيـــش بـــلا ضمـــير يحاسبه إذا أخطأ ، ويلومه إذا تمـــادى فـــى الخطـــأ .ومـــن هنـــا كانت أهمية الدراسات الأخلاقية ، فإنـــها ليســـت مجـــرد دراســـات

---

٣) الإسلام والمذاهب الأخلاقية ،د/ إبراهيم محمد إبراهيم ص ٦، ٧ ،ط الأمانة ١٩٨١

نظرية جافة منفصلة عن حيـــاة النـــاس ، وإنمـــا هـــي دراســـات مرتبطة ارتباطـــا وثيقـــاً بحيـــاة النـــاس ، وممتزجـــة بســـلوكهم امتزاجا عضويـــاً .

لذلك اخترت موضوع بحثـــى ـ بمشـــيئة الله تعـــالى ـ " الأخلاق الإسلامية وأثرها على الفـــرد والمجتمـــع " وقـــد تنـــاولت فيه الموضوعات التاليـــة : تعريـــف علـــم الأخـــلاق ـ موضـــوع علم الأخلاق ـ أقسام علم الأخلاق ـ أهميـــة الأخـــلاق وفائدتـــها ـ الخلـــق وعوامـــل تكوينـــه وبنـــاءه فـــى الإنســـان ـ الإلـــزام الخلقى مصدره وســـماته ـ المســـئولية الخلقيـــة ودورهـــا فـــى تقويم أخـــلاق الإنســـان ـ الأخـــلاق الإســـلامية وشـــمولها لكـــل جوانب الفرد والمجتمـــع .

أولاً : تعريف علم الأخلاق :-

الأخلاق جمع " خُلق " وقد جاء ذكرها فى القرآن الكريم مفردة فى قوله تعالى : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[٤] ووردت بصيغة الجمع فى السنة النبوية فى قوله ﷺ : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " [٥] وهذه الكلمة تدل فى اللغة على : العادة والسجية والطبع والمروءة والدين " [٦]

ومعنى هذا أن الأخلاق تشمل الصفات الطبيعية المركوزة فى فطرة الإنسان والصفات التى اكتسبها بالتدريب والمران ، وأصبحت كأنها خلقت مع طبيعته ، فمزاولة الخلق المطلوب تعطى الملكات ، بمعنى أنه يصير ملكه لصاحبة ، فمن يزاول خلقاً يريده كالسخاء مثلا فإنه يتمرن عليه ، ولا يزال يتكلفه حتى يصبح السخاء له سجية وكذلك من يزاول الصدق والحلم والوفاء والأمانة يمكن أن يصير له هذه الفضائل أخلاقا بمنزله الطبع الفطرية .أما فى الاصطلاح فقد ذكر العلماء تعريفات عدة لهذا العلم منها :-

---

٤) القلم آية ٤

٥) سبق تخريجه

٦) انظر فى ذلك : القاموس المحيط ٢٣٦/٣ ف خ ب ق ، وقارن مختار الصحاح مادة " خلق" وأيضاً لسان العرب مادة خلق ١٢٤٥/٢

١. أنه علم " الخير والشر " ومقصدهم من ذلك أنه يبحث فى الخير والشر ، وأن الإنسان عن طريق ذلك العلم يستطيع أن يميز بين كل منهما ، فيسير فى طريق الخير ، ويبتعد عن طريق الشر .

٢. وعرفه آخرون بأنه : " علم الإنسان " لأنه يبحث فى الأعمال التى تصدر عن الإنسان ،ويصدر الأحكام على هذه الأعمال ، ويرسم طريق السعادة للإنسان .

٣. وعرفه فريق ثالث بأنه : " علم الواجب والواجبات وذلك لأنه يهدى الإنسان إلى ما يجب عليه عمله وما يجب عليه تركه" (٧)

وهذه التعريفات على كثرتها ليس فيها تعريف يفى بالغرض ، لأن منها ما هو جامع غير مانع ، ومنها ما هو مانع غير جامع " فمثلاً تعريفة : " بعلم الإنسان " هذا التعريف يدخل كل العلوم المتعلقة بالإنسان سواء من الناحية الجسماتية أم من الناحية المعنوية ، فيدخل " علم التشريح " وعلم وظائف الأعضاء " و" علم الكيمياء الحيوية " و"علم النفس " و" علم

---

٧) أنظر دراسات فى العقيدة والأخلاق ، د/ محمود مزروعة وظلعت القلم ومحمد ربيع وص ١٥٩ ـ ١٦٠ ط /القاهرة وقارن الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين ود/ على حمدى حيا الله ص١٠ ،ط : القاهرة ١٩٧٧، وقارن نظرات فى التصوف والأخلاق الإسلامية د/ محمد المهدى ص ١٥٤ ـ١٥٥ ط: القاهرة ١٩٧م . وأيضاً العقيدة والأخلاق ، و د/ بيصار ص ١٩٦ .

المنطق " و" علم الجمال " و" علم العقيدة " إلى غير ذلك من العلوم التى تبحث فى الإنسان ، فهو تعريف غير مانع ، وأما تعريفة بأنه علَم الخير والشر فهو تعريف غير جامع لأن علم الأخلاق لا يقف عند حد الكشف عن حقيقة كل من الخير والشر وإنما يحدد كذلك الواجب والواجبات ويحض عليها .

وأما تعريفه بأنه علم الواجب والواجبات فهو تعريف قاصر أيضا لأنه أهمل جانباً هاماً من جوانب العلم وهو تقييم الأعمال الإنسانية فى ضوء تحديد قيمة كل من الخير والشر [٨]

والتعريف الذى تختاره دائرة المعارف للبستانى وتميل إليه هو : أن علم الأخلاق علم بالفضائل وكيفية اقتنائها ليتحلى الإنسان بها ، وبالرذائل وكيفية توقيها ليتخلى الإنسان عنها [٩]

فعلم الأخلاق أذن كما هو واضح من هذا التعريف يبحث فى السلوك الإنسانى من حيث كونه فضيلة أو رذيلة ، ومن حيث خيريته أو شريته ، وكيفية تمثله وتنفيذه أمرا واقعا ليتحلى

---

٨) راجع العقيدة والأخلاق للدكتور محمد بيصار ص ٢٠٣ : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٣ م

٩)أنظر تأملات فى فلسفة الأخلاق د/ منصور رجب ص ١٩ ، ط ٣ الأنجلو المصرية : ١٩٦١ م وقارن فلسفة الأخلاق ج ٢ ، د/ توفيق الطويل وص ١٦٠ ، ط ٤ النهضة المصرية ١٩٧٩ وقارن دراسات فى العقيدة والأخلاق ص١٦٠ ، وقارن العقيدة والأخلاق د/ بيصار ص ١٩٦، ١٩٧ ، ط القاهرة .

الإنسان بالفضيلة ويتجنب الرذيلة ، وليتمسك بالخير ويبتعد عن الشر .

ويمكن أن يقال فى تعريفة ، كعلم له مبادئه وأصوله وقواعده بأنه : " علم يدرس ظاهرة السلوك الإنساني من حيث منابعه ودوافعه وغاياته ، ويحدد القيم والقواعد العلمية التى يجب مراعاتها فى السلوك أيا كان لون هذا السلوك أو شكله ، كما يدرس وسائل الإلزام والالتزام بالسلوك الخير ، ووسائل الابتعاد عن السلوك الشرير " (١٠)

ثانيا : موضوع علم الأخلاق :-

موضوع علم ما ، هو المسائل والظواهر التى يختص بالبحث فيها ،وتميزه عن غيره من العلوم ، فموضوع الطلب مثلا بدن الإنسان ، وموضوع الجغرافية هو الأرض من حيث تأثيرها فى الإنسان وتأثير الإنسان فيها ، أو هو علاقة الإنسان والحيوان بالمكان ، وموضوع التاريخ هو الإنسان من حيث علاقته بالزمان ، وموضوع الكيمياء :دراسة المواد المختلفة وتأثير بعضها

---

١٠) أنظر : فى الفلسفة والأخلاق ، د/ محمد كمال جعفر ، ص ١٥١ وط : دار الكتب الجامعية الاسكندرية و١٩٦٨م

وقارن الأخلاق الاستاذ أحمد أمين وأمين مرسى قنديل وص ٣ وط : القاهرة ١٩٤٦م

فى بعض ، وموضوع علم النحو أو أخر الكلمات من حيث الأعراب والبناء ، وموضوع الرياضة الكم والعدد ...الخ .

وبالموضوع تتمايز العلوم ، نعم تتمايز العلوم أيضا بالتعريف ، لكن الامتياز الحاصل بالموضوع تميز بحسب الذات ، والحاصل بالتعريف تميز بحسب المفهوم والتميز بحسب الذات راجح زائد فى نفسه على التميز بحسب المفهوم .(١١)

وموضوع علم الأخلاق هو السلوك البشرى ، وليس السلوك أيا كان ، بل السلوك من حيث اتصافه بالخير والشر ، وهو فى بحثه لهذا السلوك أو ذاك إنما يقومه وفق معيار أخلاقى معين قد يكون الواجب وقد تكون اللذة وقد تكون المنفعة ...الخ فالمهم هو أن الخيرية والشرية تقاس وفق معيار .

ولهذا قيل أن علم الأخلاق هو العلم الذى يدرس السلوك البشرى وهو أيضا العلم الذى يضع المعايير والمستويات الأخلاقية اللازمة و التى ينبغى أن تتوافر فى سلوك بشرى ما لكى نحكم عليه فى النهاية بأنه أخلاقى أو غير أخلاقى .

---

(١١) أنظر فى الفلسفة والأخلاق ، د/ محمد كمال جعفر ، ص ١٥١، ط: دار الكتب الجامعية بالأسكندرية ١٩٦٨، وقارن الأخلاق : أ/ أحمد أمين وأمين مرسى قنديل ص ٣ ط : القاهرة ١٩٤٦

ومعنى أن يضـــع علـــم الأخـــلاق معـــايير يقـــاس بـــها السلوك البشرى ، معناه أن هـــذا العلـــم لا يـــدرس الوقـــائع ، بل يدرس القيـــم ، ولـــهذا فـــإن علـــم الأخـــلاق ينـــدرج فـــى الفلسفـــة تحـــت مبحـــث القيـــم التـــى هـــي الحـــق والخـــير والجمال ، فإذا كـــان المنطـــق يـــدرس معيـــار الصـــدق ، وإذا كان علم الجمال يبحث عن ماهية الجمـــال أو مـــا بـــه يكـــون الشيء جميلا ، فإن علم الأخلاق يـــدرس الخـــير فـــى صـــوره المتعددة والمتنـــوعة ، وهـــو يهـــــدف إلـــي فـــهم طبيعـــة الحياة الخلقيـــة. (١٢)

على أن علم الأخلاق لا يـــدرس مـــا هـــو كـــائن ، بل ما ينبغى أن يكون ، فهو لا يدرس الوقـــائع كمـــا هـــي ولا يقررها ، وليس من شأنه تقرير العلاقات بيـــن هـــذه الوقـــائع إنه يدرس معيار الخير والشر فـــى الســـلوك البشـــرى ، وهـــو وإن إضطر إلى دراسة وبيان مـــا هـــو كـــائن ، فذلـــك بقصـــد بيان ما ينبغى أن يكون عليه هـــذا الســـلوك أو ذاك .

فموضوع علم الأخـــلاق إذن هـــو : " إعمـــال الإنســـان الإرادية الصادرة عن فكـــر وروية (١٣) .أى الاعمـــال التـــى

---

(١٢) أنظر: دروسات فى الفلسفة الخلقية ، د/ فيصل بدير عون ، ص ٦ط : القاهرة

(١٣) أنظر فى العقيدة الإسلامية والأخلاق ، د/ محى الدين الصافى وآخرين ص٢ــ١٧٨ط:جامعة الأزهر ١٩٩٣ وفلسفةالأخلاقا/أحمد امين ص٥ وأيضا مقدمة فى علم الأخلاق د/ محمود حمدى زقزوق ص١٨ ط:٤::١٩٨٤م

صدرت من الإنسان عن عمد واختيار، بحيث يعلم صاحبها وقت عليها ماذا يعمل ، وهذه التى يصدر عليها الحكم بالخير أو الشر وكذلك الأعمال التى صدرت لا عن إرادة ، ولكن يمكن الاحتياط لها وقت الانتباه وهي التى يعبر عنها "بالأفعال شبه الإرادية " وأما ما يصدر لا عن إرادة وشعور ولا يمكن الاحتياط لها وهي الأفعال غير الإرادية ، فليس من موضوع علم الأخلاق. (١٤)

فالأعمال الإرادية هي التى تصدر عن الإنسان بإرادته واختياره ، خيرا كانت أم شرا ، ويكون شاعرا بها متفطنا إليها عند مزاولتها ، ويمكنه أن يمتنع عنها إن شاء ، وهذه الأفعال وحدها هي التى يمكن أن نحكم عليها بأنها خيرا أو شر ، صالحة أو غير صالحة ، وعلى فاعلها بأنه خير أو شرير وفى علم الأخلاق قد يسمى العمل الإرادى الذى يقوم به الإنسان مختارا لتحقيق غاية من غاياته سلوكا ويعتبر السلوك أخلاقيا إذا كان كما يجب أن يكون ، أى خيرا .

---

(١٤) السابق ٢/ ١٨٠ وقارن احمد امين ص ٧

ثالثا : علم الأخلاق بين النظر والعمل :-

اختلفت آراء العلماء فى هذا الموضوع :
فمنهم من يذهب إلى القول بأن علم الأخلاق نظرى ، ومنهم من يذهب إلى القول بأنه عملى ، ومنهم من يرى الجمع بين الأمرين ، والذى أراه ويراه كثير غيرى أنه علم نظرى وعملى فى آن واحد ، إذ أن العلم بالفضائل والقواعد التى ترسم لنا طريق السلوك الحميد ، وتحدد لنا بواعثه وغاياته أمر نظرى ، يتحقق بالعلم والمعرفة .

" فالجانب النظرى من علم الأخلاق يختص بالبحث فى ماهية " الخير " و " الشر" ووضع قواعد السلوك ، ومقاييس الأعمال ؛ وبالبحث فى " الضمير " الإنسانى ، حقيقته ومظاهره ، كما أنه يعنى بتحديد غاية الإنسان من هذه الحياة وكماله الذى ينشده والذى يتحقق به سعادته ، وفيما يشبه هذا وذاك أو يتعلق به من أبحاث(١٥).

فالمقصود بالقسم النظرى من الأخلاق أذن : حصول الرأى والاعتقاد فحسب ، أى يقصد به دراسة

---

(١٥) العقيدة والأخلاق د/بيصار ص ٣٠٥ ، ط ٤ الأنجلو ١٩٧١

الخير والشر ، بما فى ذلك غايـــة الفعـــل الخلقـــى ومصـــدره : أهو التجربة ؟ أم العقـــل ؟ أم الضمـــير ؟.

والجـــانب العملـــى فـــى علـــم الأخـــلاق يَختـــص بالرقابة لممارســـة الجـــانب النظـــرى ، ومـــدى تطبيقـــه فـــى الحياة الواقعية للفرد والجماعـــة ، بحيـــث يكـــون مـــن شـــأنه الحكم بمطابقة الفعـــل أو عـــدم مطابقتـــه لقـــانون الأخـــلاق ، وبموافقتـــه أو عـــدم موافقتـــه لمعـــانى الحـــق والواجـــب ، ولمقياس الأخلاق ، سواء تعلـــق ذلـــك بـــالفرد أو الجماعـــة ، كالبحـــث فـــى أقـــوم الطـــرق لتربيـــة الخلـــق ، واســـتقامة الضمير ، وتعويد الإنسان علـــى الأفعـــال الحميـــدة بتكرارهـــا ،والإدمـــان علـــى ممارســـتها ، وإبعـــاده عـــن نقائصـــها ، بهجرها واســـتقباحها .(١٦)

فالتحلى بما يعرفه الإنســـان مـــن الفضـــائل والقواعـــد الأخلاقية ، وتطبيقها كسلوك حـــى فـــى علاقاتـــه المختلفـــة لا يحيد عنـــه ، أمـــر عملـــى ، وهـــو الثمـــرة المقصـــودة مـــن المعرفة والغاية التى يقصدها بتعليمـــه للفضـــائل .

" فالأخلاق العملية هي عبـــارة عـــن حصـــول رأى فـــى أمر يكسب الإنســـان بخبرتـــه وتجربتـــه ، ليكتســـب مـــا هـــو

---

(١٦) السابق نفس الصفحة ، وقارن : تأملات فى فلسفة الأخلاق ص ٢٩ وما بعدها

الخير منه ، أى أن الأخلاق العملية لا يهمـــها حـدوث النظـر إلا بمقـدار ما يؤدى هـــذا النظـر إلـى واقـــع وسـلوك عملـى. (١٧)

أن الأخـلاق العمليـة تعـد بمثابـة تطبيـق للأخـــلاق النظرية المجردة ، أو هي تطبيـق جزئـى واقعـى لقواعـد أو قوانين أو اعتقادات عامة ، فـإذا كـان هنـاك قـانون نظـرى عام للأخلاق فـــإن مهمـة الأخـلاق العمليـة هـي مراعـاة تطبيق كل فرد على حدة لـــهذا القـانون .

فعلماء الأخلاق وإن كانوا ينظرون إلـــى علـم الأخـلاق باعتباره محصلة للنظريـات والآراء والمذاهـب التـى تجتـهد فى البحث عـــن معـايير الخـير والشـر ، والمبـادئ الكليـة والمعاني الجامعـة ، كـالبحث فـى حقيقـة الخـير والشـر ، والفضيلة والرذيلة ومصادرها ، ومقـاصد السـلوك وغاياتـه القصوى ، ونحو ذلك ، مما يســمى : " فلسـفة الأخـلاق ، أو علم الأخلاق النظـرى " إلا أنـهم لا يغفلـون لحظـة واحـدة عن أن الجـــهد والبحـث يسـتمد حياتـه وحيويتـه وقيمتـه بالتطبيق فحسب ، وإلا أصبح جهدا بائر لا غنـــاء فيـه .

---

(١٧) دراسات فى الفلسفة الخلقية ص ٩ مرجع سابق

فالمرء لا يكون فاضلا لمجرد علمه بما يجب عليه فعله ، بل فضله فى أن يعمل ما يجب عليه فعله ، وهو عالم لماذا هو يقوم بهذا العمل على هذا الوجه بعينه ، دون غيره من وجوه الفعل المختلفة ، وبعبارة أخرى يعمل بما يعلمه ، ويؤمن بأنه خير ، لا أن يكتفى بمجرد العلم بالخير والإيمان به فقط دون تطبيق ما يعلم ويؤمن به .

ولهذا نجد القرآن ـ المجيد يقرن الإيمان فى كل آياته تقريبا بالعمل الصالح من مثل قوله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾.(١٨)

فالعمل شرط لصحة الإيمان وقبوله ، لأن المؤمن لا ينبغى أن يناقض قوله فعله ، فيقع تحت لوم خالقه ، الذى يستنكر بشدة انفصال الكلمة عن الفعل أو العلم عن

---

(١٨) المؤمنون آية ١ ـ ١٠

التطبيق ، كما يفهم من قوله تعالى : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ، وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ (١٩) وقوله تعالى :﴿ يا أيها الذين آمنوا لما تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ﴾.(٢٠) من هذا نرى أن غاية الأخلاق وثمرته متحقق بالعمل والتطبيق ، والجانب النظرى فيه ، إنما هو وسيلة لتحقيق ما يجب أن يكون على أكمل وجه ، وحتى يحقق الإنسان ما يصبو إليه من خير وسعادة .

على أنه لا يجب أن يفهم من هذا التقسيم أن كل فرع منفصل عن الآخر ، فهذا أمر لا شك باطل ، ذلك أنه إذا كنا قد قسمنا الأخلاق إلى قسمين فإن هذا التقسيم اعتبارى فحسب وعلى سبيل الفهم ، ذلك لأن رجل الأخلاق لا يعد كذلك إلا إذا طبق مفاهيمه النظرية على واقعه العملى ، إنه لا يعد أخلاقيا إلا إذا كان سلوكه العملى خاضعا ومتفقا مع اعتقاده النظرى ، فإذا كانت الأخلاق تدرس الخير والشر فهي أيضا تنظر فى أفعال الفردبما هو كذلك، يقصد تدبير أفعاله ، فغاية الأخلاق ليست النظر بل العمل والتطبيق .

---

(١٩) البقرة آية ٤٤

(٢٠) الصف آية ٢ ــ ٣

رابعا : أهمية الأخلاق وفائدتها وضرورتها للحياة الإنسانية :-

الأخلاق بالنسبة للحياة الإنسانية تعتبر على جانب كبير من الأهمية ، ولا نكون مبالغين إذا قلنا أنها تمثل ركنا أساسيا فى هذه الحياة ، سواء كان ذلك على مستوى الفرد أو على مستوى المجتمع ، ولهذا فإن هناك شبه اتفاق بين المفكرين والفلاسفة والعلماء على ضرورة الأخلاق ولزومها لحياة الإنسان فردا كان أم جماعة .

وقد يظن بعض المفكرين أن من الناس من يتنازلون عن مبادئهم الخلقية تحت ظروف خاصة ، ولهذا يرون أن الأخلاق صور مصطنعة ، أو أقنعة اجتماعية يختلف تقديرها بحسب ما تجلب للفرد من نتائج ، ولكن مع هذا فليس من حق هؤلاء المفكرين أن يستنتجوا من ذلك أن الإنسان أو المجتمع يمكن أن يحيا بدون أخلاق ، فقد تختلف المبادئ والمعايير من مجتمع إلى آخر ، ومن عصر إلى عصر ، ولكنها تظل دائما صورا خلقية إنسانية .(٢١)

ومهما يكن من الاعتبارات الفردية والاجتماعية التى يرجع إليها تغير هذه الصور الخلقية الأساسية ، فإن الأخلاق تظل حاجة أساسية للإنسان ، وضرورة إنسانية

---

(٢١) أنظر الأخلاق بين الفلسفة والإسلام ، د / عبد المقصود عبد الغنى ص ١٢ ط: القاهرة ١٩٨٧م

لازمة لحياة المجتمعات وبدونها يصبح الإنسان ذئبا لأخيه الإنسان مما لا يتيسر معه إقامة حياة اجتماعية سليمة .

وتتضح حاجة الإنسان إليها إذا أشرنا إلى أن غرائزه متعددة متنوعة ، معقدة غير سهلة ، مركبة غير بسيطة ، فمنها الفردي الذى يدفع إلى الأثرة والأنانية والبخل ، ومنها الإجتماعى الذى يدعو إلى الإيثار والتعاون والكرم ، ومنها ما يهبط به إلى حضيض المادة ، ومنها ما يسمو به إلى أفق الروح ، ذلك أن الإنسان مخلوق مركب ، فى كيانه جزء أرضى وجزء سماوى ، هو جسد وروح ، شهوة وعقل إنسان وحيوان ، ملاك وشيطان ولذا عرفه بعض الفلاسفة ـ نظرا لاتصاله بعالم الروح وعالم المادة ـ فقال : " الإنسان مواطن فى عالمين " (٢٢) ومن هنا كانت حاجته إلى الأخلاق ، لأنها قوائم بين غرائزه ، وتهذب طبيعته ، وتوجهه إلى السلوك اللائق به فى الحياة كأفضل مخلوق أختصه الله تبارك وتعالى بالخلافة عنه فى الأرض ، وجعل رسالته عبادته وطاعته سبحانه .

---

(٢٢) أنظر: الإيمان والحياة ، د/يوسف القرضاوى ، ص ١٧١، ط ٧ القاهرة ١٩٨٠ وقارن : الأخلاق بين الفلسفة والإسلام ص ١٢

إن الإنسان الذى يسعى إلى الارتقاء بذاته ، والسمو بإنسانيته ، يعانى صراعا داخليا بين جانبه المادى، وجانبه الروحى والأخلاق هي التى تساعده على انتصار الجانب الروحى فيه على الجانب المادى ، وتحقيق ما يسعى إليه من السمو بإنسانيته ، ثم تصبح الأخلاق بمثابة صراط مستقيم على الفرد أن يحفظ توازنه عليه ، كى يعبر سالما خلال المجتمع من حيوانيته إلى إنسانيته وربما كانت المعجزة الكبرى التى تصنعها الأخلاق هي : أنها ترد للإنسان كرامته ، وتحرك ما فيه من عنصر سمو وجلال ، وتسمو به فوق المستوى الطبيعى البحت ، إلا أن ذلك لا يتحقق على الوجه الأكمل إلا إذا كانت هذه الأخلاق مستوحاة من الدين ، وقائمة على أساس من العقيدة الصحيحة التى تتمثل فى الإسلام الدين الخاتم .

ولا شك أن الأخلاق هي روح الإسلام السارية فى جميع جوانبه ، ومعنى هذا أن النظام الإسلامى مبنى على فلسفته الخلقية فى جوهرها وأساسها ، يؤيد هذا ما ورد عن رسول الإسلام ﷺ ـ حين قصر أهداف رسالته وبعثته على الأخلاق حيث قال : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق "[٢٣] فبين صلوات الله وسلامه عليه أن الهدف

---

(٢٣) سبق تخريجه

الأول من بعثته هو إتمام البنـــاء الأخلاقـــى الـــذى بـــدأت بـــه الرسالات السابقة ، وكان هدفـــا لـــها . وأيضـــا فـــإن الديـــن هـــو الأخـــلاق الفاضلـــة حيـــث يقـــول ـ صلـــوات ربـــى وتسليماته عليه ـ " الديـــن حســـن الخلـــق " (٢٤) وقولـــه :" الإسلام حسن الخلق " (٢٥) ومـــن هنـــا كـــان خلقـــه ـ ﷺ ـ القرآن كما وصفته الســـيدة عائشـــة أم المؤمنيـــن ـ رضـــى الله عنها ـ حيث سئلت عـــن أخلاقـــه فقـــالت : " كـــان خلقـــه القرآن " (٢٦) ولما كان القرآن هو منـــهج الديـــن فـــلا شـــك أن تكون الأخلاق دينـــا

وليس غريبـــا أن تكـــون الأخـــلاق دينـــا ، لأن الديـــن يدعو إليها فى أصوله وفروعـــه فـــإن كـــانت العقيـــدة تمثـــل الأصول ، والشريعة تمثل الفروع ، فإن الأخـــلاق تمثـــل أهـــم ثمرة لتلك الأصـــول والفـــروع ، ومـــن هنـــا كـــانت الأخـــلاق واضحة فى كل جوانب الدين ففـــى جـــانب العقيـــدة لا يكتمـــل الإيمان إلا بها ، وفى جانب الشريعة لا تخلـــو عبـــادة منـــها .

وإذا كان الإنســـان فـــى حاجـــة إلـــى الأخـــلاق ، فـــإن المجتمع لا يقل عنـــه فـــى حاجتـــه إليـــها ، فكمـــا أن الفـــرد

---

(٢٤) أحياء علوم الدين ، الإمام الغزالى ، هامش ص ٣ ـ ٥٠ ط : القاهرة

(٢٥) صحيح البخارى ، كتاب الأدب المفرد ص ٨٠

(٢٦) صحيح مسلم كتاب المسافرين ١٢ /١٢٥ط :القاهرة

يضـيره ويفسده أن يكون كاذبا مرائيا حسـودا خائنـا مـاكرا ظالما ، كذلك يفسـد المجتمـع بشـيوع هـذه الصفـات فـى أفراده ، ومعنى هذا أن للأخلاق أثارها علـى المجتمـع ، كمـا لها أثارها على الإنسان أو الفـرد فـالمجتمع مجموعـة مـن الأفراد ،إن حسنت أخلاق كل فرد حسـنت أخلاقـه، وتحققـت سعادته ولذا فإن قادة الإصـلاح وفلاسـفته يدعـون أول مـا يدعون إلى الأخلاق الفاضلـة ، لأنـها الدعامـة الأولـى فـى بناء كـل مجتمـع سـليم ، لأن سـعادة المجتمعـات والأمـم تتحقق بأبنائها الذين اسـتقامت أخلاقـهم ، وقـد أشـار إلـى ذلك زعيـم الإصـلاح فـى أوربـا " مـارتن لوثـر ١٥٤٦ م بقوله : ما سـعادة الأمـم بكـثرة أموالـها وإنمـا سـعادتها بأبنائها الذين تثقفـت عقولـهم ،و اسـتنارت بصـائرهم ، واستقامت أخلاقـهم ففي هؤلاء سـعادتها الحقـة .(٢٧)

ومهما يكن من أمـر فـإن الأخـلاق وسـيلة للتنسـيق بين الرغبات المختلفـة للأفـراد فـى مجتمـع معيـن ، فمـن المعلوم أن لكل فرد رغباته الخاصة التـى قـد تتعـارض مـع رغبات الأفراد الآخريـن ولـو تركنـا لكـل فـرد أن يحقـق رغباته بصرف النظر عن رغبات من حولـه ، لوقـع الصـدام

---

(٢٧) الأخلاق ، صمويل سمنز، ص ٩ ترجمة محمد الصادق حسين ، ط: القاهرة ١٩١١ .وقارن الأخلاق بين الفلسفة والإسلام ص ١٤ .

الحتمى ، والتعارض الضرورى بين الأفـــراد ، وتفتـــت وحـــدة الأمـــة أو المجتمـــع ، وتحـــول إلـــى مجموعـــة مـــن المتصارعـــين ، بل لعجـــز كـــل فـــرد عـــن أن يديـــر شـــئون نفسه ، ولذا تحتم أن يتنازل كل فـــرد عـــن بعـــض مطالبـــه أو منافعه رجاء التمتع بقـــدر معقـــول مـــن الأمـــان والحريـــة والسلامة ، وذلك عن طريق تشـــريع أخلاقـــى .

وإذن فإن الأخـــلاق ضـــرورة إنســـانية لازمـــة لحيـــاة المجتمع ، لأنها توضح أســـاليب التعـــامل الإجتمـــاعى ، مثـــل العدالـــة والمســـاواة والتعـــاون ، والإخـــلاص ، والصـــدق ، والوفاء ... وما إلـــى ذلـــك مـــن القيـــم التـــى تحفـــظ علـــى المجتمعـــات وحدتـــها وترابطـــها ولأنـــها تعمـــل علـــى بعـــث الضمير الحى فـــى نفـــوس العلمـــاء والقـــادة ، فـــلا يتســـابق العلماء فى اختراع الالآت التى تدمر مـــا بنتـــه الإنســـانية مـــن حضارة ومدنية ، ولا يندفع القادة إلـــى شـــن الحـــروب التـــى قد تأتى على الأخضر واليـــابس .

إن حياة الأمـــم وبقائـــها بـــالأخلاق ، ولا بقـــاء لأمـــه تفرط فى أخلاقها ، وتتهاون فى قيمـــها ومبادئـــها الروحيـــة ، وإذا كان القرآن قد أشار إلى كثير مـــن الأمـــم البعيـــدة التـــى سقطت أو هلكت بسقوط أخلاقها ، فإن التـــاريخ قـــد ذكـــر لنـــا كثيرا من القصص فى هذا المجال ، وكـــل ذلـــك يؤكـــد صـــدق

الحقيقة التى تقرر أن الأخلاق سر بقـــاء الأمـــم ولقـــد صـــدق شوقى حين قـــال :-

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا (٢٨)

ويقول فى موضع آخر : -

وليس بعامر بنيان قوم إذا أخلاقـــهم كـــانت خرابـــا (٢٩)

وهكذا فإن الأخـــلاق لازمـــة للحيـــاة الإنســـانية ، ولكـــى تزيد هذه الحقيقـــة إيضاحـــا علينـــا أن نتصـــور حيـــاة مجتمـــع أهملت فيه الأخـــلاق الفاضلـــة ،وســـادت بيـــن أفـــراده الخيانـــة والفسق والفجـــور والكـــذب والغـــش والســـرقة وســـفك الدمـــاء والتعدى على الحرمات والحقـــوق ، وزالـــت المعـــانى الإنســـانية فى علاقات الناس مـــن المحبـــة والمـــودة والنزاهـــة والتعـــاون والتراحـــم والإخـــلاص والوفـــاء ، كيـــف يمكـــن أن تكـــون هذه الحيـــاة ؟

لا شك أن هـــذه الحيـــاة تكـــون جحيمـــا لا يطـــاق ، إذ أن النـــاس ســـوف يتخلـــون فيـــها عـــن كـــل المعـــانى الســـامية ، ويتحولـــون إلـــى وحـــوش ضاريـــة ، وســـوف ينتشـــر الســـلب والنهب والفجور والفســـق ، ســـوف تســـفك الدمـــاء ، وتزهـــق

---

(٢٨) الشوقيات ، للشاعر أحمد شوقى ، المقدمة ، ١٢/١ ط: دار الكتب العربى بيروت

(٢٩) السابق ، قصيدة بعد المنفى ٦٥/١ .

أرواح الأبرياء ، وتضيع حقـــوق اليتـــامى والضعفـــاء ، وتنتـــهك الأعراض ، وباختصار فإن مثل هـــذه الحيـــاة ســـتخلو مـــن كـــل المعاني النبيلة ، ويسيطر عليـــها الشـــقاء ، وذلـــك لأن الإنســـان سيكون فى هذا المجتمـــع أداة هـــدم وتدمـــير ، ســـيكون وحشـــا ضاريا لا يهمه إلا تحقيق أطماعه وإشـــباع غرائـــزه ونزعاتـــه ، نزعات التسلط و التجبر والأنانيـــة والانتقـــام والكـــبر والطغيـــان ولا شك أن هذا الإنســـان إذا اســـتخدم قـــواه فـــى الفســـاد أهلـــك الحرث والنسل [٣٠] وصدق الله العظيـــم إذ يقـــول :﴿ وإذا تولـــى سعى فـــى الأرض ليفســـد فيـــها ويـــهلك الحـــرث النســـل والله لا يحب الفســـاد ﴾.[٣١]

ومن ثم كان الإنسان بحاجـــة إلـــى نظـــام خلقـــى يحقـــق حاجتـــه الاجتماعيـــة ويقـــف أمـــام ميولـــه ونزعاتـــه الشـــريرة ويوجهه إلى استخدام قواه فيما يعود نفعـــه عليـــه وعلـــى غـــيره بالخير ، ومما لا ريب فيه أن الحـــق تبـــارك وتعـــالى علـــم منـــذ الأزل حاجة الإنسان إلى ذلـــك فرســـم لـــه معـــالم الأخـــلاق عـــن طريق الرسالات السماوية وخاصـــة الإســـلام .

---

(٣٠) الأخلاق بين الفلسفة والأخلاق ص ١٥

(٣١) البقرة آية ٢٠٥

وبعد أن اتضح لنا ضرورة الأخـــلاق للحيـــاة الإنســـانية ، ومدى حاجة الإنسانية إليها ، نشير إلـــى أهميـــة علـــم الأخـــلاق والغاية من دراسته .تتحقق الغاية مـــن علـــم الأخـــلاق إذا كـــانت الأخلاق قابلة للتبديـــل والتغيـــير ، فـــهل تتغـــير الأخـــلاق أم لا ؟ وإذا كانت تتغير فما هو الطريق إلـــى تغييرهـــا ؟ أهـــو العلـــم أم هو شئ غـــيره ؟

اختلفت آراء المفكرين حول هذه القضيـــة بيـــن معـــارض ومؤيد . فريق يـــرى أن الأخـــلاق كـــالخلق لا يتغـــير ، فكمـــا أن الخلق الذى هو الصـــورة الظـــاهرة مـــن الإنســـان غـــير قابلـــة للتغيير ، فكذلك الخلق الذى هو الصـــورة الباطنـــة مـــن الإنســـان غير قابلة للتغيـــير فكمـــا أن القصـــير لا يتحـــول إلـــى طويـــل ، والدميم لا يتحول إلى وســـيم ، فكذلـــك الشـــرير لا يتحـــول إلـــى خير ، وسيء الخلق لا يتحول إلى حســـن الخلـــق .(٣٢)

وهذا الفريق ينكـــر كـــل صلـــة بيـــن العلـــم والأخـــلاق ، فمهما تعلم الإنسان ومهما قـــرأ عـــن الفضـــائل ، ومـــهما بلغـــت مكانته العلمية لـــن يكـــون لذلـــك أدنـــى تـــأثير فـــى خلقـــه ، فأنصار هذا الاتجاه يرون أن العلم ليـــس لـــه أثـــر فـــى إصـــلاح

---

(٣٢) تأملات فى فلسفة الأخلاق ، ص ٣٣وقارن : دراسات فى العقيدة الإسلامية والأخلاق د /مزروعة ص ١٦٢ ودراسات فى علم الأخلاق فى ضوء القرآن والسنة النبوية د/عزة محمد حسن ، ص ٢١ جـ ٧١ ــ ١٩٩٣ وقارن نظرات فى التصوف والأخلاق الإسلامية د/ محمد المهدى ص ١٥٧

النفوس ويعبر " هوبارت اسبنسر " عن هـذا الاتجـاه فيقـول : " كيف يرجـى مـن العلـم تـهذيب الأخـلاق ؟ بينمـا نـرى مـن المتعلمين الذين استنارت عقولـهم واتسـعت مداركـهم أفـرادا لا أخلاق لهم ، ونـرى وعاظـا يقولـون بـأفواهم مـا ليـس فـى قلوبهم ، ونرى أطباء علمـاء يدسـون السـم لمرضـاهم ، فمـا أغنى العلم ،ولا نهي التعلم وبجانب هـؤلاء نـرى مـن الجـهلاء الأميين أناسا على جانب عظيـم مـن النبـل والشـرف وحسـن الخلـق (٣٣)

وهذا الرأى غير مقبول علـى الإطـلاق ، فـالخلق قـابل للتغيير ما فى ذلك ريب وكيـف لا يتغـير خلـق الإنسـان بينمـا خلق البهائم يتغير فى أحيان كثيرة ، فكلـب الصيـد يتغـير مـن الأكل إلـى تعلـم الصيـد ، والإمسـاك علـى صاحبـه ، وكذلـك البازي ، وكثير من الحيوانات المتوحشـة تنتقـل مـن التوحـش إلى الاسـتئناس .

فهذا الاتجاه يهدر كـل التعـاليم الخلقيـة ، وينكـر أيـة قيمة للنصائح الأخلاقيـة والمواعـظ ، ويجعـل المـرء محكومـا

---

(٣٣) دلملات فى فلسفة الأخلاق ص ٣٥ ــ ٣٦ ، مرجع سابق

على الأخلاق بما أمدته به الوراثة من صفات الآباء والأجداد إن خيرا فخير وإن شرا فشر .(٣٤)

وأصحاب هذا الرأى يهدمون الأديان ، وينقضون بنيان الشرائع ، ويبطلون الحكمة من إرسال الرسل – صلوات الله عليهم – فالرسل ما أرسلوا إلى الخلق بدين الله وتعاليمه إلا للارتفاع بأخلاق الناس ، والسمو بها وتغييرها من واقع البيئات المنحرفة ، إلى مستوى يتحقق فيه الخير والبر ، وينتفى منه الضر والشر .

ثم كيف ننكر تغيير الأخلاق ، والله سبحانه وتعالى بعث رسوله – ﷺ – ليتمم مكارم الأخلاق ، وقال له : ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾.(٣٥) وقال – صلوات الله وسلامه عليه – " حسنوا أخلاقكم " فالأخلاق قابلة للتغيير ، والدراسة الأخلاقية تقوى إرادة الإنسان على فعل الخير وسلوك الطريق المستقيم وتنشيط العزيمة على المضى فى سبيل الفضيلة .

ويضاف إلى ذلك أن دراسة الأخلاق تكسب صاحبها القدرة على الدقة فى تقدير الأعمال الأخلاقية ، ونقدها من

---

(٣٤) مقدمة علم الأخلاق ، د / زقزوق ص ٢١ ، ط٤ القاهرة ١٩٨٤م .

(٣٥) الذاريات آية ٥٥

غير أن يخضع فـــى حكمـــه للعـــرف أو العـــادة أو يتـــأثر بحكـــم الزمان والمكـــان " (٣٦)

والاتجاه الثاني المؤيد لقابلية الأخلاق للتغيير ، وعلى ذلـــك تتحقق الفائدة من علم الأخلاق ، وعلى رأس القائلين بهذا الـــرأى " سقراط " مؤسس علم الأخلاق حيث يعتقد أن الجهل مصـــدر الشـــر وأصل الفساد ، وأن العلم منبع الخير ،وأن العلم والفضيلة توأمان لا يفترقان ، فإذا عمل الإنسان الشر فما ذاك إلا لأنه يجـــهل طريـــق الخير ، فالعالم فى عرف سقراط ــ يستحيل أن يكون سئ الأخـــلاق ردئ الطباع ، فالفضيلة فى نظره هي العلم والمعرفـــة ، ومعرفـــة الخير كافية لإتيانه .(٣٧)

هكذا يقرر " سقراط " واضع علم الأخلاق ، فالأخلاق عنـــده تتغير ، والطريق إلى تغييرها هو العلم . " فإذا كانت الفضيلة وليـــدة المعرفة فإن الإنسان إذا عرف الخير حرص على فعلـــه ، وإذا أدرك الشر توخى تجنبـــه ، ولا يرتكب الشـــر عارف ، وإنما يرتـــــكبه من يجهله .(٣٨)

---

(٣٦) مباحث فى فلسفة الأخلاق ، د/ محمد يوسف موسى ص ١٦ ، ط : الأزهر ١٩٤٣

(٣٧) تأملات فى فلسفة الأخلاق ص ٣٤

(٣٨) الفلسفة الخلقية د/ توفيق الطويل ، ٢٥ ــ ٢٦ ، ط: النهضة المصرية

وعلى ذلك فما يقع الإنسان فيه من الإثم إنما يكون ناشئاً عن خطأ فى الموازنة بين اللذة الحاضرة ، وبين الآلام المستقبلية ، ويكون ناشئاً عن جهل بطبائع الأشياء ، هكذا يقرر " سقراط " .

وكذلك يرى الإمام الغزالى أن تغيير الخلق ممكن ، ولو لم يكن ممكنا لما قال النبى ــ ﷺ ــ : " حسنوا أخلاقكم " (٣٩) فذلك دليل على إمكان تغيير الخلق وإلا لما أمر النبى به ، ولو امتنع ذلك لبطلت الوصايا والمواعظ والترغيب والترهيب . وكيف ينكر المرء تهذيب الإنسان مع استيلاء عقله ، وتغيير خلق البهائم ممكن إذ ينتقل الصيد من التوحش إلى التأنس ، والكلب من الأكل إلى التأدب ، وكل ذلك تغيير خلق " (٤٠)

ولكن ذلك لا يغنى أن كل من درس علم الأخلاق ، وقرأ واطلع على مسائله وموضوعاته وما كتب عن الفضائل والرذائل ، يصبح على خلق فاضل لمجرد هذه القراءة أو الإطلاع ، ليس هذا صحيحا ، ولكن لكى يصبح المرء فاضلا عليه أن يطبق العلم على العمل ، وأن يحول هذه المسائل النظرية إلى واقع تطبيقى عملى ، وبهذا وحده يصير الإنسان ذا خلق فاضل .فإذا لم يحدث هذا ، ووقف المرء

---

(٣٩) إتحاف السادة المتقين ، للزبيدى ، ٣٣٢/٧ ، ط: القاهرة

(٤٠) ميزان العمل ، أبو حامد الغزالى ، ص ٦٣ ، ط: مكتبة الجندى

عند حد العلم النظرى ، ولم يطبقه فى حياته العملية ، فلن يكون فاضلا قط ، ولن يفيد من دراسته وعلمه ، وليس ذلك عيباً يحسب على علم الأخلاق ، ولكنه تقصير الإنسان نفسه .

وذلك : أن علم الأخلاق أشبه بعلم الطب ، يعرف المريض بحالته الصحية ويبين له عن علته المرضية ، ويصف له الدواء ، ويوضح له طريق الشفاء ، ثم بعد ذلك يكون مرجع الأمر كله إلى المريض ، إن شاء اتبع إرشاد الطبيب لتحسن صحته ، وإن شاء لم يفعل ، وليس فى استطاعة الطبيب إجباره على إتباع ما أرشده إليه . وكذلك علم الأخلاق ، ليس فى مقدوره أن يجعل كل إنسان صالحا ، فهو لا يفيدنا إذا لم تكن لنا إرادة تدفعنا إلى أن نأتمر بأوامره ، وننتهي بنواهيه ، وكثيراً ما يكون الإنسان صالحا حسن الخُلق دون أن يكون قد درس علم الأخلاق دراسة منظمة فى كتاب أو تلقاه عن مدرسين ، ... ولكن لا شك فى أنه إذا درسها كان أقدر فى عمله ممن لم يدرسها ، فمعرفتنا بأصول الشيء وقواعده ينير لنا الطريق . (٤١)

---

(٤١) الأخلاق ، د/ أحمد أمين ص٧-٨ ، مرجع سابق .

ومهما يكن من أمر فإن دراسة علم الأخلاق تفيد الفاضل وغير الفاضل معا ، وتنفع الخير والشرير جميعا ، فأما الخير الفاضل فإن دراسته لعلم الأخلاق تزيده معرفة بالفضائل وتعشقاً للخير ، وأما الشرير وغير الفاضل فإن دراسته لعلم الأخلاق تعرفه بالفضائل ، ثم تضعه على طريقها .

وبعد أن اتضح لنا أن الأخلاق قابلة للتغيير والتبديل ، تظهر لنا أهمية هذا العلم فى الآتي :-

أولا : إن علم الأخلاق يعتبر العلم الوحيد الذى يحقق للإنسان السعادة وهذا ما قرره أفلاطون بقوله :" ليست المعرفة ـ وإن احتوت جميع العلوم ـ هي التى تخلق السعادة وتجلب الرفاهية ، ولكن الذى يخلقها فرع واحد لا أكثر من فروع المعرفة ، هو علم الخير والشر .([٤٢])

والذى يقصده أفلاطون بعلم الخير والشر ، هو علم الأخلاق ،لأن دراسة الأخلاق تميز بين نوعين من السلوك ،أحدهما يحقق الخير ، وثانيهما يقود إلى الشر ، وتبين كيف يمكن أن يسلك الإنسان طريق الخير ، وأن يتجنب طريق

---

(٤٢) تاريخ الأخلاق ، د/ محمد يوسف موسى ص ٧٩ ، ط : دار الكتاب العربى ١٩٥٣

الشر فقد يعلم الإنسان الخير ويحبه ، ولكنه لا يدرى الطريق إليه ، وقد يعرف الشر ولا يدرى كيف يتجنبه .

ثانيا : أن دراسة علم الأخلاق تساعد على تدريب الجوانب المثلى أو الخيرة فى الإنسان ، كما تساعد على نموها نموا متكاملا سليما ، وليس معنى ذلك أن من لم يدرس الأخلاق ينقصه الكثير من التصرفات ، وليس معنى ذلك أيضاً أن كل من يدرس يكون فاضلا بالضرورة ، لكن الذى نود أن نقوله فى هذا المجال أن هذه الدراسة توسع أفق التفكير الخلقى ، وتجعل الفرد يعرف ما يعمل ويتصرف بناء على علم وإدراك أن هذه الدراسة تنمى الحاسة الخلقية ، وتقوى الإحساس الخلقى ، ولكنها لا تخلق بالضرورة هذا الإحساس .

ثالثا :- " إن علم الأخلاق يضئ لنا السبيل إلى حل المشكلات اليومية المتعلقة بسلوكنا ، إذ لا يخفى أن مشكلات كثيرة تواجهنا كل يوم ، ولا مفر لنا من القطع فيها برأي ، فتتساءل عما يجب أن نعمل لحلها ، وأى طريق نسلك فيها ، فعلم الأخلاق يعيننا على أن نهتدى إلى الحل ، وعلى اختيار الطريق الذى يرضى الضمير والعدالة .

رابعاً : يوضح لنا علم الأخلاق السبب فى أن عملا خير من عمل ، فيبين : لم ينبغى لنا ألا نندفع وراء هوانا وغرائزنا الأولية ، بل يجب أن نعمل على ضبطها وتهذيبها ، ولم يجب أن نستمع إلى صوت الضمير والواجب على ما يكون فى ذلك من مشقة نصب ، ولم يكون الهمل خيراً من حين أن نتيجة قد تكون شراً .

خامساً : إن معرفة الإنسان بأسباب ما يعمل : تجعل عمله أكبر قيمة وأكثر خيراً ، فالذى يعمل الخير وهو خبير بما يفعل ، مدرك للغاية التى يقصد ، أفضل وأسمى ممن يعمله وهو جاهل به كأن يكون عمله تقليداً ومسايرة للعرف .(٤٣)

سادساً : إن الاستمرار على كف النفس عن الاندفاع مع الهوى وتوجيهها إلى الخير يعين على تقوية الإرادة ، فتكون لنا القوة تجعلنا نثبت على الخير والحق على الرغم من تغلب الحوادث وتتابع المغريات والمحن.

سابعاً : أن الدارس لهذا العلم يكون أصدق حكما على سلوك الناس وأخلاقهم وأقرب إلى الصواب فى تقديره لأعمالهم وبواعثهم ، وأقدر على نقد الأعمال التى تعرض

---

(٤٣) الأخلاق ، أ/ أحمد أمين ص ٨

عليه وتقويمها تقويما مستقلا ، غير خـــاضع فـــى أحكامـــه إلـــى إلف الناس وتقـــاليدهم .

وهـــو مـــن جهـــة أخـــرى يـــدرك تمـــام الإدراك أن مـــن الصعوبة بمكان نقد أخلاق النـــاس وأعمالـــهم وتقديرهـــا تقديـــرا عادلا صحيحا يرضى الذمـــة والضمـــير ، ولـــذا فإنـــه لا يتســـرع فى الحكم على أعمال الناس وأخلاقـــهم قبـــل أن يتعـــرف نياتـــهم ومقاصدهم ، ويحسن الظن بـــهم أكـــثر ممـــا يســـيئه ، فتحســـن بذلك العلاقات بينه وبينـــهم .(٤٤)

هذا ، وإن علم الأخلاق علم عملـــى ، يمـــس كـــل إنســـان من قريب ، مهما تكن مهنتـــه وعملـــه ، ويتصـــل بالحيـــاة أتـــم الاتصال، فهو يداخل الأديب فـــى أدبـــه ، والطبيـــب فـــى طبـــه ، والسياسى فى حكمه البلاد ، والصحفى فيمـــا ينشـــر مـــن أخبـــار ، والصانع فيما يصنع ، والأستاذ فى عملـــه ،وكـــل عـــامل فيمـــا يعمل ، وينير للجميع سبيلهم الى الخير فـــهو بحـــق فـــن الحيـــاة الخيرة الســـعيدة .

يقول الدكتور / محمد عبـــد الله دراز مشـــيدا بـــدور علـــم الأخلاق فى الحياة الإنسانية وأهميته : " لقـــد يكـــون فـــى وســـع الإنسان أن يســـتغنى طـــول حياتـــه عـــن بعـــض مســـائل العلـــم

---

(٤٤) السابق ص ٢١

والمعرفة ، فلا تخطر له ببـــال ، بـل قـد يسـتطيع أن يسـتغنى عنها جميعاً فترة طويلة أو قصيـرة من عمـــره ، ولكـــن أحـداً لن يستطيـع أن يخـلى همه من المسألـــة الأخـــلاقية طرفـه عيـن " (٤٥)

ويقول الفيلســـوف الفرنســى " مـــالبرانش " :" لا يوجـد علم له كثيراً اتصال بنا أكثر من الأخلاق ، ذلك بأنـــه هـو الـذى يعلمنا واجباتنا نحو الله ، والملك والأهـــل ، وجميـع مـا يحيـط بنا بصفة عامة ،كما يعلمنا الطريق الـذى يجـب سـلوكه لتكـون سعداء سعادة خالدة ، ولـــهذا فكـل النـاس فـى حاجـة ماسـة لتعلمـه " (٤٦).

وهذا القول حق إلى حـــد كبـير ، فعلـم الأخـلاق يضـئ أمام الإنسان أيا كان لونـــه أو جنســه أو مهنتـــه ، السـبيل إلـى تحقيق الفضيلة والعدالة والخير ، كمـــا يوضـح للإنســان قيمـة عمله وغاياته التى يجب عليـــه بلوغـها

---

(٤٥) الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين ، د/ صبري حيا الله ، ص ٢٤ نقلاً عن دراسات إسلامية ص ١٠٠ ط: القاهرة ١٩٧٧ م .

(٤٦) تاريخ الأخلاق ، د/ محمد يوسف موسى ص ٢٣٧، مرجع سابق

خامسا : الخلق وعوامل تكوينه :-

يمتاز الإنسان عن الحيوان بأن لـــه غايـــات يســـعى إلـــى تحقيقها ، مع وعيه بها ، وتصـــوره ، لـــها ، والنـــاس يختلفـــون فى الغايـــات التـــى يســـعون إلـــى تحقيقـــها ، ولـــهذا فميولـــهم ورغباتهم أيضا مختلفة ، فإذا تغلـــب علـــى الإنســـان ميـــل مـــن الميول باستمرار، مثل الميل إلى الســـخاء والبـــذل كلمـــا وجـــدت الظـــروف الداعيـــة إلـــى ذلـــك ، فانـــه يقـــال حينئـــذ : أن هـــذا الشخص خلقه الكرم ،وبناء علـــى هـــذا عـــرف الخلـــق بأنـــه : " تغلب ميل من الميول على غـــيره باســـتمرار" (٤٧).

فبناء على هذا التعريف يكون الرجل الفـــاضل هـــو الـــذى تتغلب عليه الميول الفاضلة باستمرار" أمـــا الـــذى يجـــود بـــالكثير من المال حينا ، ويبخل بالقليل مع وجـــود الدواعـــى للبـــذل حينـــا آخر ، فلا يوصف بأن خلقه الكرم أو البخـــل ، لأنـــه لـــم يتغلـــب عليه ميل من الميول باستمرار، حتى يصير لـــه عـــادة وخلقـــا .

وعـــرّف الخلـــق أيضـــا بأنـــه " عـــادة الإرادة " (٤٨) أى تتعود إرادة الإنسان عملا ما ، بحيث إذا عـــرض لـــه مـــا يتطلـــب

---

(٤٧) تأملات فى فلسفة الأخلاقص ٩١

(٤٨) العقيدة والأخلاق ، / بيصار ص ٢١٥

ذلك العمل ، أداة الإنسان أداء آليـــا دون تفكـير ، ومـا ذلـك إلا لأن إرادته قد تعودت الإتيان بمثـل ذلـك العمـل فـى مثـل تلـك الظـروف .

وهكذا فإنه يشترط فى الخلق الثبـات والرسـوخ لميـل ، أو حالة نفسـية معينـة حتـى يظـهر أثـر ذلـك فـى الأفعـال باستمرار، وعلى هذا فليس الخُلـق أمـرا نسـبيا ومـن ناحيـة أخرى لابد أن تكون هناك أمـارات تـدل علـى أن هـذه الأفعـال صادرة عن صاحبها بطريقة انبعاثية ، وليس أثـرا لأيـة أسـباب خارجية كالخوف أو الرجاء أو الحيـاء أو الريـاء ...الـخ [٤٩].

ويعرف الإمام الغزالـى الخُلـق بأنـه : " هيئـة للنفـس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر ، مـن غـير حاجـة إلى فكر أو روية "(٥٠) ويتضح مـن هـذا التعريـف أن الخلـق صفة نفسية ، ثابتة وراسـخة ودائمـة ، فـالخلق أمـر داخلـى باعتباره صفة نفسـية .

ويعرفه أبن مسـكويه فيقـول : " الخلـق حـال للنفـس داعية لها إلى أفعالها من غـير فكـر ولا رويـة " وهـذه الحالـة

---

(٤٩) مقدمه فى علم الأخلاق ص ٣١ وقارن : مباحث فى فلسفة الأخلاق، د/ محمد يوسف موسى ، ط٥ ، ١٥ .

وأيضاً : دراسات إسلامية ، د/ عبد الله دراز ص ٨٩ .

(٥٠) إحياء علوم الدين ، أبو حامد الغزالى ٣٩/٣ ، ط : القاهرة .

تنقسم إلى قسمين : منها ما يكون طبيعيا من أصل المزاج ـ ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدرب وربما كان مبدؤه بالروية والفكر ، ثم يستمر عليه أولا فاولا ، حتى يصير ملكه وخلقا " ... (٥١)

وهذه التعريفات للخلق تلتقى ـ من وجهة النظر الأخلاقية ـ عند نقطة واحدة وتكيف للخلق فى حقيقته وفى تكوينه متشابها ، أذ أن صدور الأفعال عن هذه الهيئة أو الملكة النفسية يكون من غير فكر ولا روية ، أى من غير قيد ، ومن غير تأخير عن الوقت المناسب ، لأن الخلق صار عادة له ، يفعله تلقائيا بدون جهد ذهني .

عوامل تكوين الخلق وبناءة :-

فإن الخلق من الناحية النفسية بأن يبدأ ميلا ضعيفا فى النفس ، يشتد فيصير رغبة أو نية أو أمرا مرجوا ، ثم يصير هيئة راسخة فى النفس ، فخلقا تصدر عنه أعماله فى يسر وسهولة من غير حاجة إلى إعمال الفكر . على أن هناك إضافة إلى ذلك مجموعة من العوامل الفعالة فى تكوين الخلق من الناحية العملية لها أثرها الفعال ، سواء كان هذا

---

(٥١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، لابن مسكويه ن ص ٤٢ ط: ١٣٩٨هـ .

الأثر سلبيا أم إيجابيا . وأهـــم هـذه العوامـل ثلاثـة : العـادة ، والوراثة ،والبيئـة .

أولا :العـادة :

ويتكون الخلـق بالممارسـة والاعتيـاد ،وبكـثرة الفعـل والمواظبة عليه . ولعل ذلك هـو الملاحـظ عنـد هـؤلاء الذيـن عرفوا الخلق بأنه " عادة الإرادة " فعندمـا يـراد تحويـل المـرء من خلق ذميم إلى آخر حميد ، أو يراد تكويـن خلـق معيـن لـم يكن موجود من قبـل يحمـل المـرء علـى إتيـان هـذا العمـل وتكراره ، ويعود ذلك مـرة بعـد أخـرى مـع اسـتعمال وسـائل الأغراء والترغيب ، التى من شأنها أن تحبـب إليـه إتيـان هـذا الفعل الحميد ، والإقبال على ممارسـته ، برغبـة صادقـة وميـل أكيد ، واستخدام وسائل التنفير ضده ،بحيث تصـير نفرتـه منـه وابتعاده ، عنه ميلا ورغبة ، بل طبيعـة وخلقـا .

وبالمواظبة على هـذا التكـرار ، والمداومـة علـى هـذا الفعل الحميد يصبح إتيانـه وممارسـته عـادة لازمـة ، وطبعـا دائما ، يعنى يصير خلقا له ، يصدر عنه تلقائيـا ، مـن غـير أن يسبقه تفكـير بحيـث يكـون انطباعـا مـن انطباعـات النفـس وحالاتها ، تحملها على الفعـل مـن غـير حاجـة إلـى تـأمل أو روية ، كأن يصبح هذا الفعـل بنتائجـه ، وآثـاره حـاضرا لـدى

النفس ، فلا تحتاج فى إبرامه إلى أى نـــوع مـــن أنـــواع التفكـــير أو الـــتردد .(٥٢)

من هنا كانت أهمية التدريب والتعـــود علـــى فعـــل مكـــارم الأخلاق ، حتى تصير عادة للمسلم ســـهلة ميســـرة ، ولعـــل هـــذا بعض ما يفهم من حديث المصطفـــى ـ صلـــوات ربـــى وســـلامه عليه ـ : " الخير عـــادة ، والشـــر لجاجـــة ، ـ أى خصومـــة ـ ومن يرد الله به خيرا يفقهه فـــى الديـــن ". (٥٣)

ولن ترسخ الأخلاق الإنسانية فى النفـــس مـــا لـــم تتعـــود النفس جميع العادات الحســـنة ومـــا لـــم تـــترك جميـــع الأفعـــال السيئة ، وما لم تواظب عليه مواظبة مـــن يشـــتاق إلـــى الأفعـــال الجميلة ويتلذذ بها ويكره الأفعال القبيحة ويتـــألم بـــها كمـــا قـــال الصـــادق والمصـــدوق - ﷺ - : " وجعلـــت قـــرة عينـــى فـــى الصـــلاة " . (٥٤)

فالوعظ والنصيحة ، وســـيلة مـــن وســـائل بنـــاء الخلـــق الفاضل ، فالوعظ هو التعريـــف بـــالخلق الفـــاضل والحـــث علـــى

---

(٥٢) العقيدة والأخلاق ، ص ٢١٦

(٥٣) رواه ابن ماجه فى مسنده ٧٨/١.

(٥٤) رواه النسائى فى سننه ، من حديث أنس بن مالك .

امتثاله وبيان الخلق السيئ والتنفير منه قال تعالى :﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ . (٥٥)

وقال : ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به "(٥٦)

وأما النصيحة فقد ورد ذكرها فى قوله تعالى :﴿ ليس على الضعفاء ، ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ، إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم ﴾ (٥٧) وقول الرسول - ﷺ - : " الدين النصيحة ، قلنا لمن ؟ قال لله وكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم " . (٥٨) هكذا يتكرر ذكر الموعظة والنصيحة فى القرآن والسنة المطهرة باعتبار أنها من أهم وسائل تربية الخلق وتكوينه ، وكثيراً ما يأمر القرآن بالتذكر فيقول : ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾. (٥٩)

---

(٥٥) سورة النحل آية : ١٢٥

(٥٦)سورة النساء آية : ٥٨ .

(٥٧)سورة التوبة آية : ٩١

(٥٨) رواه مسلم فى كتاب الإيمان ، باب إن الدين النصيحة ، ٧٤/١

(٥٩) سورة الذاريات آية : ٥٥

ثانيا : الوراثة : -

الوراثة هي انتقال بعض صفات الأصل لفرعه ، قل ذلك أو كثر ، وبها تنتقل للفرد مجموعة من الصفات الجسيمة ، كما أن للوراثة دخلا كبيرا فى تكوين الإنسان أدبيا وعقليا ولكن ما يرثه الإنسان من آبائه وأجداده من صفات نفسية ليس غرائز نامية أو ملكات ناضجة ، وإنما يرث منهم استعدادات وقوى كامنة . (٦٠)

وهنا سؤال يطرح نفسه وهو : إذا كانت الأخلاق لا تورث ، فكيف تكون الوراثة ـ إذن ـ عاملا من عوامل تكوينها ؟

نقول أن الخصائص الجسمية التى يرثها الفرع عن أصوله القريبة أو البعيدة ، لها دخل كبير فى تكوين الخلق عند الإنسان ، لأنها تتدخل فى تكوين نفسيته ، وفى تكوين تفاعلاته مع الآخرين إيجابا وسلبا وهذه التفاعلات هي التى تصوغ الأخلاق ، وتكون فى نفس الوقت صدى لها ، فالشخص الذى ورث عن أصوله خلقا سويا ، وشكلا مقبولا ، خلا من العيوب الخلقية ، والعاهات الجسدية ، مثل هذا الشخص غالبا نراه يندمج فى المجتمع ، ويتفاعل معه

---

(١) مقدمة فى علم الأخلاق ص ٣٢ ، وقارن : العقيدة والأخلاق ، ص ٢١٨- ٢١٩.

بنفس منطلقه ، وتصرفاته سوية ، بعيدة عن العقد والرواسب النفسية وذلك على عكس إنسان آخر ورث عن أصوله بعض العيوب الخلقية كالقصر أو الدمامة أو لون البشرة ، فمثل ذلك الإنسان نراه منطويا على نفسه ، بعيدا عن المجتمع ، وكثيرً ما تسبب في نفسه العقد والأمراض ، وتغلب على مثل هذا أن يغلق قلبه على الحقد للمجتمع ، والحسد للأسوياء من أفراد البشر . هذان الشخصان لا يمكن أن يكون أخلاقهما على مستوى واحد ، بل لابد من أن تختلف أخلاق هذا عن ذلك . (٦١)

وهذا هو دور الوراثة في تكوين الخلق عند الفرد ، ودور الوراثة لا يتعدى هذا المعنى ، فليس هناك إحساس سليم للقول بأن الأخلاق تورث بطريق مباشر ، إذ القول يتورث الأخلاق كالصفات والخصائص الجسمية تماما بتمام يهدم الحكمة من الدين ، وبعثة الأنبياء والرسل ، ويبطل جدوى التربية والتعليم ، ويعفى على أثر التأديب والتهذيب.

لأنه ما دامت الأخلاق تورث كالخصائص الجسدية ، فلا أمل في تغييرها ، ولا طمع في تحسينها ، بل أن القول يتورث الأخلاق يهدم المسئولية الشخصية التي هي أساس

---

(٦١) دراسات في العقيدة الإسلامية والأخلاق ، ص ١٩٠

الحساب فى الآخرة ، والثواب والعقاب ، إذ أن أساس المسئولية الفردية هو الحرية فى الاختيار.(٦٢)

ثالثا : البيئة :

تعد البيئة فى مقدمة العوامل المؤثرة والفعالة فى تكوين أخلاق الإنسان ، سواء أكانت بيئة طبيعية أو بيئة اجتماعية، فلكل منهما أثره الذى لا ينكر فى تكوين الأخلاق .

والبيئة هي : كل ما يحيط بالإنسان ، ويؤثر فيه ، كثيراً أو قليلا ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، منذ أن كان جنينا فى بطن أمه حتى يوافيه أجله المحتوم فكل ما يؤثر فى الإنسان أو يعمل على تكييفه وتكوين صفاته يعد بيئة له ، وعاملا من عوامل تكوينه الخلقى ، سواء كان ذلك بيئة طبيعية ، كالإقليم وما يتميز به من مناخ ، وجبال ، وتضاريس إلى غير ذلك أو بيئة اجتماعية، كأحشاء الأم ، والمنزل ، والمدرسة ، والأصدقاء والأندية ، ونظام الحكم ، والتقاليد والعادات التى تسود المجتمع ، والصحف والمجلات التى يشب المرء على قراءتها ، إلى غير ذلك من جوانب البيئة الاجتماعية. (٦٣)

---

(٦٢) السابق ، ص ١٩٠

(٦٣) تأملات فى فلسفة الأخلاق ، ص ١٤٣-١٥١ ، وقارن : العقيدة والأخلاق د/ بيصار ص ٢١٨

فصداقة الاختيار- وهي تدخل ضمن البيئة الاجتماعية- مثلا لها أثرها البالغ في تكوين الخلق ، فإذا كان الصديق صالحا تقيا كان له دوره في ظهور الخلق الفاضل المحمود ، وإذا كان الصديق شريرا منحرفا عن منهج الله كان له أثره في وجود الخلق السيئ المذموم ، ويصدق ذلك قول النبي - ﷺ - :"المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل " (٦٤) ، وقوله :" إنما الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك ، أما أن يحذيك وأما أن تبتاع منه وأما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير اما أن يحرق ثيابك ، واما أن تجد ريحا خبيثة " (٦٥) وقوله :" لا تصاحب إلا مؤمنا ، ولا يأكل طعامك إلا تقي ".(٦٦)

فطالما للصداقة اثر في تكوين أخلاق الفرد ، ينبغي أن يكون الصديق حميد الأخلاق حسن السلوك ، طيب العشرة ، يؤثر الفضيلة على الرذيلة ، والخير على الشر ، ويعين جليسه على طاعة الله تعالى ، إن نسي صديقه ذكره ،

---

(٦٤) أخرجه أبو داود والترمذي ، وحسنه الحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح إن شاء الله .

(٦٥) رواه مسلم في كتاب البر والصلة ، باب استحباب مجالسة الصالحين ٢٠٢٦/٤٠

(٦٦) رواه أبو داود في كتاب الأدب ، من يؤمن أن يجالس ، ٥/ ١٦٧ .

وإن ذكر أعانه ، لأن سيئ الخلق عدو لنفسه ، وعدو للإنسانية ، فلا يرجى من الخير .

وكلما كان الصديق مخلصا فى صداقته ، صادقا فى صحبته ، كان أثره فى بناء الخلق الحميد أبلغ وأعظم ، لأنه سيكون رقيبا على صديقه ، يلاحظ أحواله وأفعاله فيحثه على الخير وينفره من الشر .

هذا هو أثر الصداقة فى تكوين الخلق ، وهو جانب من جوانب البيئة الاجتماعية وقس عليه فى باقى الجوانب الأخرى وأثرها فى تكوين أخلاق الإنسان .

سادسا : السلوك وعلاقته بالخُلق :

اتضح لنا من تعريف " الخلق " أنه حالة باطنية راسخة فى النفس ، أو أنه شئ داخلى تشتمل عليه النفس ، وصفة تقوم بها ، فتطبعها بطابع معين ، يميل بها إما إلى فعل الخير وإما إلى فعل الشر . إلا أن أفعال الإنسان الظاهرة تختلف كل الاختلاف عن هذا الشيء الباطن ، هذه الأعمال الظاهرة هي التى يطلق عليها علماء الأخلاق اسم " السلوك " وهو المظهر الخارجى للخلق ، والمعبر عنه .

والأعمال الظاهرة لا تسمى سلوكا إلا إذا كانت صادرة عن إرادة ، أما إذا صدرت عن المرء من غير إرادة لها أو تفكير فيها فإنها حينئذ لا تسمى سلوكا ، بل تصرفا تدفع إليه الغرائز التى يشترتك فيها الإنسان والحيوان على السواء .

فالسلوك إذن هو : " أعمال الإنسان الإرادية المتجهة نحو غاية معينة مقصودة " (٦٧) وهو دليل الخلق ورمز له ، وعنوان عليه ، فإذا كان السلوك حسنا ، دل على خلق حسن وإذا كان سيئا دل على خلق قبيح ، وكما أن الشجرة تعرف بالثمرة ، فكذلك الخلق الطيب يعرف بالأعمال الطيبة .(٦٨)

وإذا كان " السلوك " هو صورة فعل الإنسان الظاهرة ، وكانت " الأخلاق " هي الصورة الباطنة ، فما هي علاقة السلوك بالأخلاق ؟ هل هي علاقة الدال بالمدلول ؟ على معنى أنا نحكم عليك بفعلك فإن كان حسنا قلنا أن أخلاقك حسنة ، وإن كان سيئا ، قلنا أن أخلاقك سيئة .

---

(٦٧) تأملات فى فلسفة الأخلاق ص ١٨١ .

(٦٨) مقدمه فى علم الأخلاق ص ٣٤ .

إن قلنا بهذا ، يرد علينا أن من الناس من هم على أخلاق طيبة ، غير أن ظروفهم التى تحيط بهم لا تمكنهم من أن يكونوا على " سلوك " حسن الفعل ، لضيق ذات اليد عندما يدعو داعى الإحسان مثلا ، أو لغير ضيق ذات اليد عندما تدعو فضيلة أخرى مما تراه فى كثير من الأحيان .

وعلى العكس من ذلك قد ترى شخصا لا تعرفه " الأخلاق " أبدا لا فى قليل ، ولا فى كثير ولكنه فى بعض الأوقات يجود بمقدار ما يجود به عشرات من الناس ، يجود بذلك رياء أو نفاقا ، فهل يعد هذا على أخلاق طيبة ، وذلك على أخلاق سيئة ؟ لا .

إذن فالعلاقة بين السلوك والخلق ، هي علاقة الدال بالمدلول ، لكن ليس ذلك دائما لأن الأمر يتوقف مع ذلك على الظروف والملابسات التى تحيط بالإنسان وتؤثر فيه فالسلوك يختلف باختلاف الظروف والأحوال . (٦٩)

فأحوالك الشخصية الذاتية من علم ، وجهل وفقر ، وغنى وقوة ، وضعف ، وصحة واعتلال ، كل هذا تتدخل فى سلوكك فتؤثر فيه ،فالخلق لا ينفرد بالتأثر فى سلوك

---

(٦٩) ثلاث ، ص ١٨٢- ١٨٣

الإنسان ، وإنما هناك عوامل وظروف يتوقف عليها تكييف الصلة بينهما وفاعلية الأول فى الثانى .

إن السلوك الإنسانى المرتبط بالخلق ينبغى أن يقوم على تطبيق نوازع الفضيلة على الحياة اليومية للناس ، فإن السبب الرئيسى لهذه الأزمات الاقتصادية وغير الاقتصادية، يرجع أولا وقبل كل شئ إلى الأخلاق ، ولو اتبعت فى السلوك أحكام الأمانة المطلقة والصدق والوفاء ، والإيثار ، وحب الخير ، لذهبت أكبر المشاكل ، ولساد الرخاء الناس جميعا ومما يساعد على بعث السلوك الحسن تقوية الوازع الدينى فى نفوس الناس ، بل ذلك خير ما يهديك طريق الخير ، وخير ما يوصلك إلى الحياة الطيبة السعيدة .

سابعا : الإلزام الخلقى ومصدره :-

يعتبر مبدأ الإلزام من الأسس الهامة فى أصول الأخلاق ، وهو القاعدة الأساسية الذى يدور حولها النظام الأخلاقى ، وأول ركن من أركان البناء الأخلاقى فى الإسلام .

والإلزام الخلقى يعد أساسا لكل مذهب أو نظرية أخلاقية جديرة بأن تسمى بهذا الاسم ، وبدون عنصر الإلزام هذا يتقوض البناء الأخلاقى كله ، لأنه إذا فقد الإلزام فلن

تكون هناك مسئولية ، ثم لن يكون هناك جزاء ، بل ولن يكون هناك نظام ولا قانون ، وبهذا تصبح الحياة هملا وتسحق الفوضى كل شئ ، وخرافة تلك التى تقول أنه يمكن أن توجد أخلاق بلا إلزام .(٧٠)

والإلزام أو الواجب هو كل عمل يتعين علينا أداؤه مهما يكن فى هذا الأداء من جهد ومشقة ، فهو السلوك الذى يبعث عليه الأمر الإلهي ، والضمير المؤمن ، وتحييه لنا الأخلاق الفاضلة .(٧١)

والإلزام الخلقى فى الإسلام ، إلزام إختيارى غير قهرى ، لأن الأخلاق لا تتعلق إلا بالأفعال الاختيارية والإلزام عندما يصبح قهراً أو قصراً نجده يفقد صبغته الأخلاقية وعندما تحركه العاطفة يصبح كل خضوع لهذا الإلزام لا مسوغ له .

والإلزام الخلقى هو إلزام داخلى ، أو التزام المؤمن بتنفيذ أوامر الإله الذى آمن به عن طريق الرسول ـ ﷺ ـ الذى صدق به والكتاب الذى أنزل عليه أنه إلتزام ينبعث من داخل الإنسان المسلم بعيدا عن الاختلاط بالإكراه الاجتماعي

---

(٧٠) الإسلام والمذاهب الأخلاقية .د/ إبراهيم محمد إبراهيم ص ١٨٨ ، ط : القاهرة ١٩٨١ م

(٧١) العقيدة والأخلاق فى ضوء الإسلام ، نخبة من أساتذة العقيدة بالقاهرة ط: القاهرة ١٩٨٤

الناشئ عن القوانين الوضعية ، وهو التزام حر لأن الإنسان لا يفقد معه حريته ، فإذا قال القرآن الكريم أعمل والتزام المسلم بالعمل ، فإن من الناحية العملية يستطيع ألا يعمل ، أى أنه يمكن الاختيار بين الخضوع لهذه الأوامر وعدم الخضوع لها ، ومن ثم كان التزام المسلم بالطاعة والخضوع لتلك الأوامر الإلهية ، واجتنابه لما نهي الله عنه ، التزاما حرا عن طواعية واختيار، وهذا الالتزام الحر من قبل المسلم هو الأساس للبناء الأخلاقى فى الإسلام .

والالتزام الأخلاقى فى الإسلام ، تكليف موجه إلى جميع المسلمين الذين قد ارتضوا الإسلام دينا ،وهو تكليف لا يخرج عنه مسلم ، ولا ينبغى لمسلم أن يخرج عليه ، لأنه امتداد للعقيدة وتطبيق لها ، بل هو جزء منها . (٧٢)

والذى يستقرئ آيات الكتاب العزيز التى تحدثت عن الإيمان بالله يجدها ـ غالبا ـ ما تردف العمل الصالح بالإيمان ، يأتى الإيمان أولا ثم يذكر العمل الصالح ، إجمالا أو تفصيلا ، أقرأ قول الله تعالى فى هذا الشأن : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات

---

(٧٢) الإسلام والمذاهب الأخلاقية ، ص ١٨٩

الفردوس نزلا ﴾ .[٧٣] وقوله : ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ . [٧٤] وقوله : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم ﴾. [٧٥] وقوله قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ...الآيات .[٧٦]

فنحن نرى أن هذه النصوص ــ وغيرها كثير ــ قد أفادت أن عمل المسلم وسلوكه جزء من عقيدته الإيمانية ، يستوى فى هذا العمل الدينى والعمل الدنيوى ،فالعقيدة فى الإسلام هي نظام للحياة ، والعمل الدينى يمتزج بالعمل الدنيوى ، والعبادات سياج يحمى المعاملات من الانزلاق أو الانحراف .

مصدر الإلزام الخلقى فى الإسلام :

إن علاقة الإسلام بالأخلاق ،علاقة شمول ، فإن جميع ما جاء به الإسلام يدعو إلى الأخلاق ، إما مباشرة أو ثمرة

---

(٧٣) سورة الكهف آية : ١٠٧ .

(٧٤) سورة الرعد آية : ٢٩ .

(٧٥) سورة يونس آية : ٩ .

(٧٦) سورة المؤمنون آيات : ١-١٠

لما يدعو إليه الإسلام ،سواء كان عقيدة أم شريعة ، ورغم تعدد مصادر الدين الإسلامى فى الإلزام الخلقى ، متمثلة فى " القرآن الكريم " و" السنة النبوية " و " الإجماع " و " القياس " ، فإننا ينبغى أن نذكر أنه لا يوجد سوى سلطة واحدة تشريعية ملزمة ، هي الله جلا وعلا ، والقرآن ذاته لا يفتأ أن يؤكد لنا هذه الحقيقة فى كثير من آياته منها قوله تعالى : " والله يحكم لا معقب لحكمه " (٧٧) وقوله تعالى : ﴿ الا له الحكم ﴾ (٧٨) وقوله : ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ .(٧٩) فمصدر الحكم فى العقيدة والشريعة وما يترتب عليهما من توجيه أخلاقى مباشر أو غير مباشر ، مصدر هذا كله هو الحق تبارك وتعالى . وبقية المصادر ترجع إليه .

فالرسول ـ ﷺ ـ أول خاضع لشرع الله وحكمه ، وأول من يطبقه ليكون لنا القدوة الحسنة ، وبالتالى إذا لم يرد الحكم فى نص الكتاب والسنة ،فإن الإجماع (٨٠)

---

(٧) سورة الرعد آية : ٤١

(٧٨) سورة الأنعام آية : ٦٢

(٧٩)سورة الأنعام آية : ٥٧ ، ويوسف آية : ٤٠ .

(٨٠) الإجماع : هو الحكم المجمع عليه فى الأمة . أى اتفاق جميع المجتهدين فى عصر من العصور بعد وفاة النبى ﷺ على حكم شرعى فى واقعة من الوقائع ، فإذا وقعت حادثة فى عصر من العصور ولا حكم لها فى الكتاب أو السنة ، وعرضت على مجتهدى هذا العصر الذى وقعت فيه أجمعت كلمتهم على حكم واتفقوا عليه

يأتـــى دوره محـــاولا إدراك هـــذا الحكـــم فـــى فحـــوى مجمـــوعهما ، وأيـــضا بالنســـبة للقيـــاس (٨١) الـــذى يحاول أن يكشف عن هذا الحكم أيضـــا فـــى روح نـــص الكتـــاب أو السنة ، وفى مفهومها العميـــق .

من هذا المنطلق يكون جميع مصـــادر الشـــرع الإســـلامى ترد إلى مصدر واحد ، وتكون جميـــع الأوامـــر إلـــى أمـــر واحـــد ظاهر أو باطن هـــو الله ســـبحانه وتعـــالى . فالمصـــادر الأربعـــة التى اعتبرناها متعددة ، ترجع إلـــى مصـــدر واحـــد هـــو القـــرآن والوحى ضمنا ، وأن الشـــرع والملـــزم موجـــود واحـــد هـــو الله سبحانه ، وقد أشار أبو حـــامد الغزالـــى فـــى كتابـــه المســـتصفى إلى ذلك حيث يقول : " وأعلم أنا إذا حققنـــا النظـــر بـــأن أصـــل الأحكام واحـــد ، وهـــو قـــول الله تعـــالى ، إذ قـــول الرســـول ـــ

سمى هذا الاتفاق إجماعا ، واعتبر اجماعهم على حكم واحد فيها دليل على أن هذا هو الحكـــم الشـــرعى فـــى الواقعة .

يقول أحد الباحثين :" والاتفاق لابد أن يكون صادراً من المجتهدين جميعاً دون نظر إلى سواهم ، فلا اعتبـــار برأى العامة ، سواء أكان موافقاً لهؤلاء المجتهدين أم مخالفاً ، عند أكثر العلماء "

راجع كشف الأسرار ، للبزدوى ، ص ٢١٦ ، وقارن الضمير والإلزام الخلقى بين المذاهب الفكرية والإسلام ، د/محمد على عز السماحى ، ص١٥٣ ،ط : القاهرة ١٩٨٥م .

(٨١) القياس : هو طريقة استقلالية ، عمدها النص الشرعى تقوم على المقيس عليه وهو الأصل . والقياس يتكون من أربعة أركان : الأصل وهو المقيس عليه ـ والفرع ـوهو المقيس ـ والعلة / والحكم ، والأصل ما بنى على غيره ، والفرع هو ما تفرع من غيره ، والعلة هى الأصل الجامع بين الأصل والفرع ، والحكم هو ثمرة القياس . راجع مناهج البحث د/ على سامى النشار ، ص ٩٣ .

ﷺ ـ ليس بحكم ولا ملزم ، بل هو مخبر عن الله تعالى إنه حكم بكذا وكذا ، فالحكم لله وحده ،والإجماع يدل على السنة ، والسنة على حكم الله تعالى ، وأما العقل ـ ويعنى به القياس ـ فلا يدل على الأحكام الشرعية بل يدل على نفى الأحكام عند انتفاء السمع ،فحمية العقل أصلا من أصول الأدلة تجوز على ما يأتى تحقيقه ، إلا أنا إذا نظرنا إلى ظهور الحكم فى حقنا فلا يظهر إلا بقول الرسول ـ ﷺ ـ لأن لا تسمع الكلام من الله تعالى ولا من جبريل ـ عليه السلام ـ فالكتاب يظهر لنا بقول الرسول ـ ﷺ ـ فإذا اعتبرنا المظهر لهذه الأحكام فهو قول الرسول فقط . إذ الإجماع يدل على أنهم استندوا إلى قوله ، واعتبرنا السبب الملزم فهو واحد ، وهو حكم الله تعالى ، لكن إذا لم نجرد النظر وجمعنا المدارك صارت الأصول التى يجب النظر فيها أربعة . (٨٢)

---

(٨٢) المستصفى للإمام الغزالى ، ص ١١٩ ، ط : القاهرة .

مميزات الإلزام الخلقى فى الإسلام :

يمتاز الإلزام فى الأخلاق الإسلامية بخصائص متعددة ، تتكشف لنا جوانبها كلما أمعنا النظر فى كل جوانب الدين الإسلامى المشرقة كالعقيدة والعبادات والمعاملات .

يمتاز القانون الأخلاقى فى الإسلام بالطابع العمومى الشمولى ، آخذاً من قوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ﴾ . (٨٣) فعندما نؤكد على شمولية الإلزام الخلقى فى الإسلام إنما نعنى به أمور كثيرة منها :إن الإلزام يشمل كل جانب من الجوانب الإنسانية المختلفة الداخلية والخارجية فللفكر أخلاق ،وللاعتقاد أخلاق ، وللقلب أخلاق ، وللنفس أخلاق ، وللسلوك الخارجى أخلاق .

فمن فضائل أخلاق الفكر تحرى الحقيقة بإنصاف وتجرد وحياد ، الصبر على التفكير والتدبر ، والبحث عن كل نافع ومفيد من الأفكار والمعارف والعلوم ، والبعد عن سفاسف الأفكار وتوافهها ، والاشتغال بتذكر كل صالح مفيد ، ونسيان الأحداث المثيرة للأحقاد والضغائن ، أو الباعثة على الغضب والانفعالات غير الحسنة ، وعدم التطلع إلى الحسد أو مثيرات الشهوات والأهواء المحرمة ... الخ هذه الفضائل .

---

(٨٣) سورة الأعراف آية : ١٥٨ .

ومن فضائل أخلاق الاعتقاد أن لا يسمح الإنسان لنفسه بأن يتتبع الأوهام والظنون الضعيفة ، فيحلها فى مركز عقائده الثابتة الراسخة ، وأن لا يجعل مراكز عقائده فريسة للتقليد الأعمى ،و الضلالات الشائعة ،أو فريسة لما تملية الأهواء والشهوات من أفكار ومذاهب وتيارات وافدة ، أو فريسة لما يمليه القادة المضلون والشياطين الموسوسون من الجن والأنس . (٨٤)

ومن فضائل أخلاق النفس الصبر والعفة ومجانبة الحسد والترفع عن سفاسف الأمور والنظر إلى معاليها ، وعلو الهمة ،وجود النفس وتسامحها وعفوها عن إساءة المسئ .

ومن فضائل أخلاق القلب حب الحق والخير ، وكراهية الباطل والشر وخلوه من الأحقاد والضغائن ،أما فضائل أخلاق السلوك الظاهرة فكثيرة ، وهي فى حقيقتها الصادقة تعبر عما فى داخل الإنسان من أخلاق ، ويقابل ذلك كله نقائص ورزائل خلقية يطالب الإنسان باجتنابها والبعد عنها .

---

(١) الضمير والإلزام الخلقى ، ص ١٩٣ .

إن هذا الشمـــول الإلزامـــى وعمومـــه علـــى نحـــو مـــا سبق ، لا يمكن أن يكون لـــه اعتبـــار مـــا دام مجـــرد أقـــوال ، وهذا ما يأباه الإسلام ، فهـــذا لا قيمـــة لـــه مـــا لـــم يـــنزل إلـــى الواقع ، ويصبـــح آمـــرا واقعـــى ينفـــذه الأفـــراد والجماعـــات ، ويصبح الجميع خاضعـــا خضوعـــا تامـــا لكـــل جميـــع قواعـــده ، وتوجيهاته ، كما يخضع الفـــرد نفســـه للقـــاعدة بتطبيقـــها علـــى نفسه قبل أن يطالب بتطبيقها علـــى غـــيره .

فمبدأ العدالة فى الإسلام مبدأ يشـــكل قـــاعدة مـــن قواعـــد التشريع الإسلامى ، فليس من اللائـــق أخلاقيـــا أن يـــأمر أحدنـــا غيره بالتزام الفضيلة والبر وهو من الناحية أقـــل مســـتوى ممـــا يأمر به غيره بـــالتزام الفضيلـــة ،وأقـــل التزامـــا بـــالمبدأ الـــذى يدعو إليه ، قـــال تعـــالى : ﴿ أتـــأمرون النـــاس بـــالبر وتنســـون أنفسكم وأنتم تتلون الكتـــاب أفـــلا تعقلـــون ﴾. (٨٥) وليـــس مـــن العدالة ولا مـــن الفضيلـــة إذا أردنـــا أن نتعـــامل مـــع النـــاس أن نستوفى الكيـــل لنـــا ونخســـر لغيرنـــا ، قـــال تعـــالى : ﴿ ويـــل للمطففيـــن الذيـــن إذا إكتـــالوا علـــى النـــاس يســـتوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهـــم يخســـرون ﴾.(٨٦)

---

(٨٥) سورة البقرة آية : ٤٤

(٨٦) سورة المطففين آية : ١-٣ .

والملتزم بالشريعة الإسلامية يجب عليه فى حالات الحكم أن يحكم بالعدل دون أن ينفعل بعاطفة الصداقة أو يتأثر بما بينه وبين المحكوم عليه من العداوة التى ربما تكون قد وقعت بينهما (٨٧) قال تعالى :﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ .(٨٨)

ويؤكد الإسلام عموم الإلزام وشموله بأنه حذر من الأهواء التى تجعل أصحابها يخضعون للمنفعة الذاتية خضوعا يجعلهم يتلاعبون بالإلزام حسب منفعتهم ، فيلجأون إلى الإلزام والاحتكام إليه ظالما يحقق نفعا ،ويبتعدون عنه حينما لا يحقق لهم نفعا .

وإذا حدثت هذه الظاهرة فى المجتمع الإسلامى ، وأمام التشريع المنزل من الله ، فإن المشرع يعتبر ذلك حالة مرضية يمتد جذور المرض فيها إلى قلب الأفراد ،ويتشعب تأثيره فى الجماعة كلها بالضرر والأذى . قال تعالى :﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ،وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ، أفى

---

(٨٧) سورة المائدة آية : ١٠٨

(٨٨) التفكير الأخلاقى فى إطار النظرة التطبيقية ، د/ طه الدسوقى ، ص ٨٥ ، ط : دار الهدى ، القاهرة ، وقارن : الضمير والإلزام الخلقى ، ص ١٩٤ وما بعدها .

قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون ﴾ .(٨٩)

كذا نرى فى جلاء لا لبس فيه شمول الإلزام الخلقى فى الإسلام للجميع مهما اختلفت الظروف والمناسبات ، بحيث لا يحق لمسلم أن يتعلل بتعليلات أو تضعف إرادته أمام مبدأ الإلزام الخلقى ، فعموم الإلزام يشمل جميع سلوكنا وتصرفاتنا وعلاقتنا ، سواء كانت بيننا وبين الله ، أو بيننا وبين أفراد المجتمع .

وإلى جانب الشمول فى الإلزام الأخلاقى ، نجد أيضا إمكان العمل شرط أساسى فالإسلام حينما يلزم الإنسان بأمر فإنه يراعى فيه جانب " الاستطاعة " ومن هنا فإنه لا يكلفه فوق وسعه وطاقته ، وفى هذا الشأن يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ (٩٠) . ويقول : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها ﴾. (٩١) ويقول : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾.(٩٢)

---

(٨٩) سورة النور آيات : ٤٨-٥٠

(٩٠) سورة البقرة آية : ٢٨٦

(٩١) سورة الطلاق آية : ٧

(٩٢) سورة التغابن آية : ١٦ .

وإن الظروف التى نزل فيها قوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ . تبين لنا معنى الاستطاعة التى تتفق مع مبدأ الإلزام ، فحينما نزل قول الله تعالى : ﴿ وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ..... ﴾الآية (٩٣) فبعض الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ اعتقد أن هذه الآية تنطبق على كل ما يدور فى الضمير ، تمسكا منهم بحرفية مفهوم هذه الآية .

ويوضح لنا هذه الواقعة الحديث الذى رواه لنا الصحابى الجليل أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ حيث قال : " لما نزلت على رسول الله ـ ﷺ ـ : ﴿ لله ما فى السماوات وما فى الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ . اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ ، فأتوا رسول الله ، ثم جثوا على الركب فقالوا : يارسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق : الصلاة والصوم والجهاد والصدقة ، وقد أنزل الله هذه الآية ولا نطيقها . فقال رسول الله ـ ﷺ ـ أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من

---

(٩٣) سورة البقرة آية : ٢٨٦ .

قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . (٩٤)

وهنا نزل هذا النص التفسيرى المذكور آنفا ليوضح لهم أن التكليف لا يكون إلا فى حدود الاستطاعة والوسع ،فالله سبحانه لا يحاسبنا بخلجات النفس ولا بوساوس الشيطان ولا بالغرائز الفطرية ، وتلك هي العناية الإلهية التى تجعل الأخلاق صالحة للتطبيق فى مجالات الحياة الإنسانية .

ثم نأتى بعد ذلك إلى خاصية أخرى فى الإلزام الأخلاقى ، وهو اليُسر العملى بمعنى إقصاء كل ما لا يمكن أن يخضع خضوعا مباشرا أو غير مباشر لقدرتنا ، فالإسلام حينما يكلف الإنسان ويلزمه بأمر فإنه يراعى فيه جانب السهولة واليسر ، بحيث يمكن تطبيقه ، ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾.(٩٥) وقوله: ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾ . (٩٦) وقول

---

(٩٤) رواه الامام مسلم فى صحيحه ، كتاب الايمان ، راجع : تفسير القرطبى ، ٢/٩٣ ، وقارن : العقيدة والأخلاق ص ٢٨٤ .

(٩٥) سورة البقرة آية : ١٨٥

(٩٦) سورة المائدة آية : ٦

الرسول ـ ﷺ ـ : " إن خير دينكم أيسره ،إن خير دينكم أيسره" (٩٧) وقوله : " يسروا ولا تعسروا ، واسكنوا ولا تنفروا " (٩٨)

وهذا اليسر الذى هيأ لنا الشارع ، يجب على المسلم أن يعيه ولا يعكر صفوه بجنوح العاطفة تارة وبالتشدد فى غير موضعه ، تارة أخرى بالتهاون والاستهتار بمفهوم اليسر.

إن الإلزام الأخلاقى قد جاء فى القرآن الكريم مشروطا بأمرين : أحدهما : أن النشاط الذى يستهدفه يجب أن يكون يسيرا على الطبيعة الإنسانية بعامة أى خاضعا لإرادة الإنسان ثانيهما : أن يكون هذا النشاط ميسرا فى واقع الحياة المحسوسة ، أى يمكن ممارسته وغير استبدادي .(٩٩)

ولما كان الإنسان عبارة عن تركيب من العلاقات الحيوية والشخصية والأسرية والاجتماعية والإنسانية والإلهية فى نظام دقيق مترابط قابل للتطور والتقدم ، وليس من الممكن أن نغفل أى واحد من هذه العناصر دون أن

---

(١) أخرجه الامام أحمد فى مسنده عن أبى قتادة الأعرابى .

(٢)أخرجه الامام أحمد فى مسنده عن أنس بن مالك .

(٣) الأخلاق والسياسة د/ محمد ممدوح العربى ص ٢١٣ ، ط : الهيئة العامة ١٩٩٢ م

يحدث خلل فى هذا التناسب الفريد الـــذى أبـدع فيـه الإنســان ، كانت التربية للإنسان ككل مــن جميــع الجوانــب إلــى مســتوى معين ، أى تمارس النفس الإنسانية كل القيـــم قبــل أن تخصــص فى واحدة من بينها ،ذلك هو المفهوم الإســـلامى للواجـب الــذى يؤكــده قــول الرســول ــ ﷺ ــ :" إن لربــك عليــك حقـــا ، ولنفسك عليك حقا ولأهلك علـــيك حقـا ، فــأعط كــل ذى حــق حقــه " .(١٠٠)

ثامنا : المسئولية فى الإسلام :

موضوع المسئولية هـــو مــن أهــم الموضوعــات التــى يشتمل عليها علــم الأخــلاق وأشــدها أثــرا فــى تشــكيل كيــان الإنسان ، وكمالـــه الذاتــى ، ســواء فــى جانبــه النفســى ، أو الوجدانى ، أو الأخلاقـــى .

والمسئولية من الظواهـــر المعروفــة لنــا جميعــا ، ومــع ذلك فإن إدراكهــا ليس أمــرا ســهلا فنحــن نقــول عــن بعــض الناس : أنهم قـــد فقــدوا الشــعور بالمســئولية ، ونقــول عــن آخرين : أن لديهم شعورا جــادا بالمســئولية .فــإذا تأملنــا هــذه الظاهرة تأملا أدق فسيتبين لنا أنه ليـــس صحيحــا تمامــا القــول

---

(١٠٠) رواه الإمام البخارى فى صحيحه .

بأن هذا الإنسان او ذاك قد فقد الشعور بالمسئولية ، فالصواب أن نقول : أنه يحاول التهرب من المسئولية أو أنه لا يريد أن يتحمل المسئولية ، فافتراض الشعور بالمسئولية قائم إذ أننا لن نستطيع أن نتحلل منه تماما في أية لحظة من لحظات حياتنا الواعية ، هذا لا يمنع أن تكون حيوية هذا الشعور مختلفة من فرد إلى فرد ،فهناك من يصم أذنيه عن سماع صوت هذا الشعور محاولا التغاضى عنه وهذا وحده هو ما نعنيه حين نتحدث عن فقد الشعور بالمسئولية .

أما الشعور بالمسئولية بالمعنى الدقيق والصحيح فإنه لا يفقد أبدا ، كما أن هناك من يصم أذنيه عن سماع صوت هذا الشعور فإن هناك على العكس من ذلك ، من هو مصغ تماما لهذا الصوت المنبعث من داخل نفسه ، وهذا ما يمكن أن يعبر عنه بحسب المسئولية أو ــ كما يقول نيتشه إرادة المسئولية . (١٠١) فالمسئولية صفة يستمدها الإنسان من فطرته الإنسانية ، قبل أن يتلقاها من الخارج .

والمسئولية تعتبر نتيجة لازمة لوجود الإرادة ، فما دام الإنسان له دخل فى أفعاله الإرادية ، فلابد أن يكون مسئولا ، لأن الإرادة تعنى القدرة على الاختيار وعلى المفاضلة بين

---

(١٠١) مقدمة فى علم الأخلاق ، ص ٣٨

الأفعال ، وعلى الاتجاه نحو أحدها ، وتعنى أيضا شعور الفرد بقيمته وأهليته لتحمل نتائج أفعاله ، وبذلك يجد من الطبيعى أن يكون مسئولا عن أفعاله ، بخلاف الشخص المقيد بقيود داخلية أو خارجية فإنه يجد لنفسه العذر فى عدم إمكانه الوفاء بالتزاماته ، وعدم مسئولية عن ذلك . وإذا كانت المسئولية تلزم بالضرورة عن الإرادة ـ لأنها النتيجة المنطقية للاختيار فإن المسئولية تستتبع الجزاء ، أى الأثر الضرورى الذى يلاقيه الإنسان نتيجة الفعل .

ومهما يكن من أمر فإن المسئولية تعنى فى إطارها العام : " حالة للإنسان يكون فيها صالحا للمؤاخذة على أعماله ،ملزما بتبعاتها المختلفة ".(١٠٢)

ومعنى هذا أنها شعور المرء بأنه مسئول عن أعماله ، ومتحمل لما يترتب عليها من نتائج وآثار ، وهذا الشعور يتدخل فى تكوينه عناصر كثيرة أهمها : العنصر الدينى والعنصر الخلقى ،والعنصر الإجتماعى ،والعنصر الدينى يتمثل فى إيمان المرء بأن الله تعالى مطلع على كل ما يفعله فى السر والعلن ، وأنه يعلم ما توسوس به نفسه ،

---

(١٠٢) فى العقيدة الإسلامية والأخلاق ، د/ عوض الله حجازى وآخرين ، ص ١٣٠ ، ط: دار الطباعة المحمدية ١٩٧٧م ، وقارن : العقيدة والأخلاق ، د/ بيصار ، ص ٢٢٥ ، وقارن : مبادئ الأخلاق د/ماهر كامل ، ص ٥٩ .

وهذا يربى فيه الحاسة الوجدانية أو الضمير الـذى يكـون رقيبـا داخليا يحاسـب الإنسـان ويلومـه إذا أخطـأ كمـا يربـى فيـه الشـعور بأنـه مسـئول عـن أعمالـه أمـام الله . والعنصـر الإجتماعى يتمثل فى أن المرء يمـر بخـبرات اجتماعيـة تنمـى فيه الشعور بالمسئولية كإحساس بتوقـع الجـزاء ، وذلـك فيمـا إذا تكرر منه ما يسـتوجب اللـوم ، ولقـى مـن المجتمـع هـذا التأنيب واللوم كل مرة ، أو إذا تناسى رد مـا عليـه مـن ديـن ، وطولب به أكثر من مـرة ، فـإن تكـرار أمثـال هـذه الخـيرات الاجتماعية يولد فى الفـرد شـعورا بالمسـئولية عـن تصرفاتـه نحـو المجتمـع ، وهـذا الشـعور يتضمـن ضـرورة مراعـاة الأوضاع الاجتماعية، منعا لتكرار الخـبرات المؤلمـة .

وأما العنصر الخلقى ، فيتضـح مـن شـعور الفـرد بأنـه مصدر أفعاله ومنشئها ، وبأن ما يترتب عليها مـن نتـائج إنمـا يكون هو سببها وأهلها ، وعلـى هـذا فإنـه يشـعر بمسـئولية تجاه ما يقوم به من أفعال ، بـل ومـا تسـتتبعه مـن نتـائج ، لأنه لولاه ما حدث ، وبذلـك يتكـون لديـه شـعور بالرضـا إن أصاب ، وشعور بالأسـف إن أخطـأ .(١٠٣)

---

(١) المسئولية والجزاء د/ على عبد الواحد وافى ، ص ٤٧ ، ط : مكتبة النهضة .

وهـذه العنـاصر ليسـت منفصلـة أو مسـتقلة عـن بعضها ، ولكن الصلة بينها قويـة وواضحـة فالمسـئولية فيـها كلـها واحـدة ، إلا أنـها تبـدو بصـورة دينيـة ، أو بصـورة اجتماعية، أو بصورة خلقية ، حسب الدوافـع التـى قـامت مـن وراء الفعل وحسب القيمة الروحيـة لـه .

وبناء على ما تقـدم يمكـن لنـا تقسـيم المسـئولية إلـى أقسام ثلاثـة :

(١) المسئولية الدينية : وهـي الـتزام المـرء بـأوامر الدين ونواهيه ، وقبوله لمـا يـترتب علـى مخالفتـها ، بحيـث يكون ملتزما بمـا ينتـج عـن هـذه المخالفـة ، مـن جـزاءات محدودة وعقوبات مقـررة .

(٢) المسـئولية الاجتماعيـة: وهـي الـتزام المـرء بقوانين المجتمع الذى يعيـش فيـه وبتقـاليده ونظمـه ، سـواء كانت وضعية أو أدبية ، وتقبله لما ينتج عن مخالفتـه لـها مـن عقوبات شرعها المجتمع للخارجين علـى نظمـه ، أو تقـاليده ، وآدابه .

(٣) المسئولية الخلقية : وهي حالة تمنح الإنسان من القدرة أمام نفسه ما يعينه على تحمل تبعات أعمالها وآثارها . (١٠٤)

وهذا النوع الأخير من المسئولية هو موضوع عناية المؤرخين لعلم الأخلاق ، وكما أن مصدر النوع الأول من المسئولية هو الدين ، بما جاء به من مبادئ وما سن من أحكام أو خص من تشريعات ، وكما ان مصدر النوع الثانى هو المجتمع بما أتفق عليه من نظم وبما ساد فيه من تقاليد وآداب ، فكذلك مصدر المسئولية الخلقية ، ما أودع فى الإنسان من قوة فطرية تسمى " الضمير "الذى يكون له من السلطان ما يجعل منه مصدرا للمسئولية رقيبا على الفعل ، ثم مثيبا أو معاقبا عليه ، تبعا لما يتصف به من خير أو من شر ، خطأ أو صواب .

ومن أهم الأحاديث النبوية التى تعبر عن هذه الأنواع الثلاثة مجتمعة هو حديث الرسول ـ ﷺ ـ الذى يقول فيه:" كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، الأمام راع ومسئول عن رعيته ،والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة فى بيت زوجها راعية ومسئوله عن رعيتها ، والخادم راع

---

(١٠٤) العقيدة والأخلاق د/ بيصار ، ٢٢٥ -٢٢٦

فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . (١٠٥)

فقد أوضح النبى ـ ﷺ ـ سمات المسئولية فى الإسلام في أنها فردية ، فكل إنسان مسئول عن فعله ، قال تعالى : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، أقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ . (١٠٦)

والمسئولية الأخلاقية التى نتحدث عنها هي المسئولية الإنسانية التى نتجت عن إلزام وانتهت بجزاء ، والمسئولية الأخلاقية والمسئولية الاجتماعية فى الإسلام إنما هي مسئولية دينية بالدرجة الأولى ، حيث نجد أن كل مسئولية هي مسئولية أخلاقية متى ارتضيناها ،حتى لو حملّنا إياها الغير تصبح بمجرد قبولنا لها مطلبا صادرا عن شخصنا ، وبالتالي فنحن المسلمين نؤمن بالله ـ عز وجل ـ رباً واحداً ، ومحمداً ـ ﷺ ـ رسولاً ونبياً ، وبالإسلام ديناً ، أى نلتزم بشريعة الله فى معاملاتنا الفردية أو الاجتماعية فتكون بذلك المسئولية مسئولية دينية ، يختلف فيها الجزاء

---

(١٠٥) أخرجه البخارى فى العتق ، باب العبد راع فى مال سيده ، ١٨١ .

(١٠٦) سورة الاسراء آية : ١٤- ١٥ .

حسب حدوث الفعل من عدمه . أما بالنسبة لغير المسلم فتعتبر مسئولية مفروضة عليه من خارج ذاته ، دون ان تكون لديه مسئولية أخرى صادة عن ضميره الخاص ، عكس المسلم تماما ، نجده لا يمكن أن توجد إحدى المسئوليتين لديه دون الأخرى ، لأن العمل الأول للإيمان يستلزم معرفة الله الجديرة بالطاعة والذى هو فى الوقت نفسه محبوب ومعبود .

ومن هنا نستطيع أن نقول إن الأخلاق الإنسانية فى الإسلام لابد من ارتباطها بالدين وبالتالى تصبح المسئولية الأخلاقية مرتبطة بالمسئولية الدينية ، ولا يمكن الفكاك من أسارها والمسئولية التى يتحملها أمام الله ليست بأقل من المسئولية التى تقع عليه فى أداء الوجبات الأساسية ، ومن ثم فإن مبدأ الإلزام الذاتى لكى يحقق العمل المنشود لابد أن يكون متوافقا مع الخير الذى سبق إقراره شرعا . (١٠٧)

---

(١٠٧) الأخلاق والسياسة، ص٢١٧

شروط المسئولية الأخلاقية :

قلنا إن المسلم مسئول عن كل عمل يقوم به ، أو أى نشاط يحدثه ، لكن هذه المسئولية لا تكمل بالنسبة للإنسان المسلم إلا إذا توافرت شروط وعناصر أساسية أهمها :

(١) الإعلام الشرعى :

إن أول شرط للمسئولية الأخلاقية فى الإسلام هو الإعلام الشرعى ، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى أوجب على نفسه أن يعلم الناس كافة قبل أن يحملهم مسئوليتهم ،لأنه سبحانه وتعالى يرى من الظلم تعذيب الناس دون أن يرسل الرسل والأنبياء لدعوتهم إلى التقوى والصلاح ، وحتى يكونوا شهداء عليهم ، وفى هذا يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ *(١٠٨) وقوله : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ﴾ (١٠٩) وقوله : ﴿ وما

---

(١٠٨) سورة الإسراء آية : ١٥

(١٠٩) سورة القصص آية ٥٩ .

أهلكنا من قريـــة إلا ولـهـــا منـــذرون ، ذكـرى ومـا كنـا ظـالمين ﴾ .(١١٠)

إن الحكمة الإلهية اقتضت إن تعلم الأمـــم بواجباتـها عـن طريق الرسل الذين يذكرونـــهم دائمـا بغفلتـهم وانغماسـهم فـى الملذات التى أفقدتهم نورهم الفطرى ،ولـم يتركـهم لـهذا النـور الفطرى وحده ، بل أرسل إليـهم الرسـل بنـور الوحـى المـنزل حتى يهتدوا فإن ضلوا فكان العذاب ، ولـم يكـن لـهم علـى الله حجة بعد الرسل ، وقد صدق الله تعالـــى إذ يـــقول: ﴿ رسـلا مبشرين ومنذرين لئـلا يكـون للنـــاس علـى الله حجـة بعـد الرسل ، وكان الله عزيـــزا حكيمـا ﴾ .(١١١)

لهذا اقتضت العدالة الإلهية بـأن توقـظ الضمـائر الغافلـة عن طريق الرسـل لإعلامـهم حتـى يكـون نتيجـة هـذا العلـم مسئولين عما تقترفه أيديـــهم ، حيـث لا يكـون الحسـاب علـى أفعالهم دون أن يكون قد علموا مســبقا أحكامـها .

---

(١١٠) سورة الشعراء آية : ٢٠٨ ـ ٢٠٩

(١١١) سورة النساء آية : ١٦٥ راجع الأخلاق والسياسة ، ص ٢١٩

(٢) أهلية التصـــرف :-

من شروط تحمـــل المســـئولية أو المســـاءلة الأخلاقيـــة ، القدرة على التمييز بين الخير والشـــر تمـــيزا واضحـــا ، ولـــهذا جعل الشـــرع العقـــل والبلـــوغ ، أساســـا للتكليـــف ، لأن العقـــل معيـــار التميـــيز بيـــن الخـــير والشـــر ، والفضيلـــة والرذيلـــة ، والشعـــور بالواجـــب ، ومنـــاط التكليـــف والمســـائلة وتحمـــل النتائج والجـــزاء .

فإذا فقد الإنسان عقله فلا مســـئولية عليـــه ، ولا اعتبـــار لأى عمل من الأعمـــال يقـــوم بـــه لأنـــه أصبـــح مثـــل الحيـــوان الأعجم ، ولذا قـــال ـ ﷺ ـ : " رفـــع القلـــم عـــن ثلاثـــة عـــن النـــائم حتـــى يســـتيقظ ، وعـــن الصغـــير حتـــى يكـــبر ، وعـــن المجنون حتى يفيـــق " (١١٢) فـــلا مســـئولية علـــى مجنـــون أو مكره ،أو عمن كان دون البلوغ فكل هـــذه أنمـــاط مـــن الســـلوك فقدت الضابط لها ،وهـــو العقـــل أو قـــوة التميـــيز بيـــن الخـــير والشر ، ومن ثم الشعور بـــالواجب .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه .

(٣)الطابع الشـــخصى :

فالإســـلام يـــرى أن المســـئولية الأخلاقيـــة مســـئولية محضة والنصـــوص الدالـــة على ذلـــك كثـــيرة نذكـــر منهـــا قوله تعالى :﴿ من إهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومـــن ضـــل فإنمـــا يضـــل عليـــها ، ولا ـــــتزر وازرة وزر أخـــرى ﴾ . (١١٣) وقـــوله : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا مـــا ســـعى ﴾.(١١٤) وقولـــه : ﴿ ومن يكسب إثما فإنما يكســـبه علـــى نفســـه وكـــان الله عليمـــا حكيما ﴾ (١١٥) وقوله ﴿ تلك أمة خلت لها مـــا كســـبت ولكـــم مـــا كسبتم ، ولا تسألون عما كـــانوا يعملـــون ﴾ . (١١٦)

من هنا تبدو مسئولية كل فرد واضحـــة جليـــة عـــن العمـــل الذى يقوم بـــه تجـــاه نفســـه أو تجـــاه الغـــير ، فالإنســـان ليـــس مسئولا إلا عن سلوكه الشـــخصى ، فـــلا يتحمـــل أحـــد وزرا مـــن عمل غيره دون أن يكون له فيـــه نصيـــب مـــن كســـب مـــا ، ولا ينـــال من عمل غيره دون أن يكون له فيـــه نصيـــب مـــن كســـب ما ، وهذا ما يتوافق مع الفكرة الأساســـية للعدالـــة الإلهيـــة .

---

(١١٣) سورة الإسراء آية : ١٥

(١١٤) سورة النجم آية : ٣٩

(١١٥)سورة النساء آية : ١١١

(١١٦) سورة البقرة آية : ١٣٤

فالخطيئة فى الإسلام لا تورث ، ولا يتحمل وزرها الأبناء أو الأحفاد والثواب والعقاب لا يتأتى فيهما أى تحول أو امتداد أو اشتراك أو التباس حتى بين الأباء والأبناء فليس فى أخلاق الإسلام أن يؤخذ البريء بالمذنب ، لأن هذا ظلم يتنافى مع العدالة الإلهية التى هي الضمان الأساسى لكل مستند أخلاقى .

إن المسئولية الفردية لا تمنع الفرد أن يكون مسئولا عن انحراف مسلك أقرانه ، فعليه أن يتدخل بجميع الوسائل المشروعة التى يطبقها ليمنعهم من التمادى فى الأعمال التى تضر المجتمع الإسلامى ، وبهذا تتحول المسئولية الفردية إلى مسئولية جماعية ، حيث أن الجماعة ما هي إلا مجموعة الضمائر التى تربت فى أحضان المدرسة الإسلامية الحقة ، فأوجدت مجتمع التكافل والتعاون والخير والسلام .(١١٧)

(٤) <u>الإرادة الحرة :</u>

إن إرادة العمل واختيار الإنسان له هو عنصر أساسى من عناصر المسئولية وشرط من شروطها ، فلا مسئولية على المكره ، لأنه لا إرادة له ، حتى قال الفقهاء

---

(١) الأخلاق والسياسة ، ٢٢٠ - ٢٢١

إن طلاقة لا يقع ، وكذا كل عمل يقـــوم بـــه ، فإنـــه لا مســـئولية له حيال هذا العمل ، أما العمـــل الـــذى يحاســـب عليـــه الإنســـان فهو العمل الذى ينويه ويريـــده ، ويقـــدم عليـــه عـــن طواعيـــة ، واختيار دون إكراه أو إجبـــار ، ولـــهذا تنتفـــى المســـئولية عـــن المضطر ، قال تعالى : ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عـــاد فـــلا إثـــم عليه ..... الآيـــة . (١١٨)

والحرية فى الإسلام تتمثل فى أن المـــرء المســـلم مطلـــوب منه استخدام قدرته على الاختيار، بعـــد أن وضـــع لنـــا الله تعـــالى منهجه فى قرآنـــه وقـــام بتوضيحـــه الرســـول ـ ﷺ ـ حتـــى لا يتخذ المسلم من الحتمية العلوية مهربا مـــن المســـئولية .

(٥) إرتباط النية بـــالعمل :

القانون الأخلاقى لا يعنيه ســـوى نيـــة الفـــاعل وقصـــده ، بخلاف القانون الوضعى الـــذى يـــهتم فـــى المقـــام الأول بـــالفعل وصلته بصاحبه ، لهذا كانت عناية الديـــن بالنيـــة والجهـــة التـــى تتجه إليها إرادة الفاعل . فجعل النيـــة شـــرط فـــى قبـــول العبـــادة كما أنـــها الممـــيزة للفعـــل والمحـــددة لصفتـــه ، مـــن الوجـــوب والندب والإباحة ، كما أنـــها الفاصلـــة بيـــن جـــهتى الفعـــل، هـــل

(١١٨) سورة النحل آية : ١١٥ راجع الفلسفة والمذاهب الأخلاقية

يبغى به صاحبة وجه الله فيستحق الثواب والحمد ، أو وجه نفسه من الربا والمباهاة . يقول الرسول ـ ﷺ ـ : " إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل إمرئ ما نوى ..... الحديث " . (١١٩)

فقيمة العمل إنما تقدر حسب النية فيه ، لا بحسب العمل ذاته ،فالذى يقصد ارتكاب جريمة ما ، لكنه لا يتمكن من إتمامها لمانع خارج عن إرادته ، كان مسئولا أخلاقيا عن قصده وإرادته .

من هذا يتبين لنا أن شروط المسئولية الأخلاقية تتمثل فى : أهلية التصرف فى العمل ،والقدرة على التمييز ، وعلم الإنسان بحدود الخير والشر فيما يقوم به من عمل ، والإرادة الحرة التامة ، أى التى لا يحول دون إنفاذها حائل ، وقد جمع الدكتور " دراز " شروط المسئولية فى قوله : " الشروط الضرورية والكافية لمسئوليتنا أمام الله وأمام أنفسنا ، هي أن يكون العمل شخصيا إراديا ، ثم أداؤه بحرية وأن نكون على وعى كامل ، وعلى معرفة بالشرع والقانون " .(١٢٠)

---

(١١٩) رواه البخارى فى صحيحه ، ١/٢٠

(١٢٠) دستور الأخلاق فى القرآن ، ص ٢٢٢

وبمقدار توفر هذه الشروط فى الفاعل يكون مقدار ما يتحمله من مسئولية أخلاقية فمسئولية المرء على عمل ما تختلف بحسب ما يتمتع به من قدرة على التميز بين الخير والشر والشعور بالواجب والعلم والتفطن بأوجه الفعل المختلفة ، ونتائجها ، والإرادة المصممة على الفعل وحريته الكاملة على الاختيار.

سمات المسئولية الخلقية :

للمسئولية الخلقية سمات خاصة تميزها عن غيرها ، أهمها ما يلى :

أ-إن المسئولية الخلقية تتضمن وجود قواعد مقررة للأحكام الخلقية توضح للناس ما فى تصرفاتهم من خير أو من شر ، وبدون هذه القواعد لا يوجد مبرر لهذه المسئولية .

وهذه القواعد تقوم على مستويات عامة ، كالصدق ، والعدل ، والعفة ، والأمانة ، والشجاعة ، وتنتهي إلى مستوى أعم وهو الخير الأسمى ، وهذه المستويات العامة غايات فى ذاتها ، ووسائل للخير الأعظم ، وهي أدل على المسئولية الخلقية من أى أمر أخر ،لأنها تبين طبيعة هذه المسئولية ، وامتيازها بأن قيمتها فى ذاتها ، لا فى شئ خارج عنها .

ب-المسئولية الأخلاقية لا تستمد قوتها من تجارب الإنسان في الحياة ، ولا من المجتمع ، بل من القيم الإنسانية في ذاتها ، فالصدق قيمة خلقية مطلوبة ، رغم أن الكذب قد يكون أسلم وأدعى إلى الأخذ به كما تدل عليه الخيرات الفردية ، فالمسئولية الأخلاقية إذن لا تستهدف الإصلاح العملى ، ولا الفائدة الاجتماعية، بل ترمى إلى تحقيق القيمة الذاتية للإنسان ، ومن الصحيح أن الإسلام قد أباح الكذب في بعض المواقف ، ولكن مع هذا فإنه لا يعتبر فضيلة أو خيرا يشجع عليه الإسلام ، وليس إلا سلوكا استثنائيا لحالات ضرورية . ولهذا فإن الرسول ـ ﷺ ـ حذر منه ودعا إلى اجتنابه فقال: " تحروا الصدق وإن رأيتم فيه هلكه ، فإن فيه النجاة ،واجتنبوا الكذب ، وإن رأيتم فيه النجاة فإن فيه الهلكة " .(١٢١)

جـ- تتضمن المسئولية الأخلاقية وجوب مغالبة الإنسان لأهوائه ودوافعه التى تتعارض مع القيم الخلقية ، فإن فى مغالبته لها وانتصاره عليها ارتقاء بإنسانيته وسموا بعقله .وهذا الأمر هو الذى يفسر الصراع الداخلى الذى يحدث فى نفس الفرد عند القيام

---

(١٢١) الجامع الصغير للسيوطى ، ١٢٩/١

بفعل خلقى مما يتطلب ضرورة التبصر من العقل ، والتردد من الإرادة .(١٢٢)

هذه أهم السمات التى تتميز بها المسئولية الأخلاقية ، وهذه السمات تجعلنا ننظر إليها على أنها مرحلة أرقى من المسئوليات الأخرى ، إذ تتسم بالارتفاع عن الواقع الحاضر المادى إلى مثل عليا والخروج عن حدود المجتمعات الصغيرة إلى المجتمع الإنسانى الأكبر .

وقبل أن أضرب الذكر صفحا عن المسئولية الخلقية ينبغى التنبيه على الأمور الآتية وملاحظتها :-

أولا : شروط المسئولية إذا تمت جميعها كانت المسئولية تامة ، وإن نقصت كانت المسئولية ناقصة :-

ثانيا : إن الإسلام قسم الأعمال الأخلاقية بحسب المسئوليات ، فقسم الواجبات إلى واجبات عينية أو كفائية . وقسم المنهيات إلى كبائر وصغائر وإلى

---

(١٢٢) الأخلاق بين الفلسفة والإسلام ، ص ١٣٢ ـ ١٣٣ وقارن : مبادئ الأخلاق ، ص ١٧١

محرم ومكروه ، ومعنى ذلك أن المسئولية ليست فى درجة واحدة .

ثالثا : تقاس المسئولية بحسب الفعل من ناحية قداسته أو بشاعته ، فالقتل أبشع من السرقة ، والتضحية بالنفس أقدس من التضحية بالمال ، وهكذا .

رابعا : الإنسان مسئول ، ويتحمل مسئولية سلوكه الاختياري ، وتختلف درجة المسئولية بحسب اختلاف الأعمال والآثار المترتبة عليها .

خامسا : مسئولية الإنسان لا تقتصر على عمله الشخصى بل تتعداه إلى عمل غيره حيث أن الإنسان ليس فقط مسئولا عن فعل الشر بل مسئولا أيضا عن دفع الشر ، لأن هدف الأخلاق تحقيق السعادة والخير ،وذلك لا يتم إلا بدفع الشر ، لأن الإنسان متضامنا مع غيره فى جلب الخير ودفع الشر بحكم القوة الآدمية والإيمانية ، ولهذا كانت دعوة الناس إلى الخير واجبة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبا ، وذلك لأن المصيبة تعم كما أن النار لا تحرق المكان الذى هي فيه ، بل قد تتجاوزه إلى غيره ، ومن هنا كان قوله ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا

منكم خاصة ﴾ [١٢٣] وأن المسئولية لا تنفك عنه إلا إذا دعا غيره ، فإن دعا فلا ضرر عليه بعدئذ .

سادسا : أن المسئولية ليست قاصرة على المسئولية الدنيوية [١٢٤] من حيث المكافأة والجزاء ، بل أن المسئولية الأساسية هى المسئولية الأخروية ، تلك التى ينال فيها الإنسان نتيجة مسئوليته ثوابا أو عقابا ، قال تعالى :﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ .[١٢٥] ومن هنا كان أساس المسئولية فى الإسلام عظيما يتحملها الإنسان الفرد والمجتمع ، فى الظاهر والباطن ، وفى الدنيا والآخرة .

---

(١٢٣) سورة الأنفال آية : ٢٥

(١٢٤) العقيدة والأخلاق فى ضوء الإسلام ، ٢٨٧ ـ ٢٨٨ ، وقارن : الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام د/ مقداد يالجن ص ٢٥٠

(١٢٥) سورة الزلزلة آية : ٧-٨

صلة الأخلاق الإسلامية بالعقيدة والشريعة

حين نزل القرآن الكريم على النبى ـ ﷺ ـ كانت الأخلاقية والاجتماعية عند العرب منحلة انحلالا لا يمكن معه لأمة من الأمم أن تسير إلى الأمام ، فرأى البارى جلت إرادته أنه من الحكمة أن يفسح فى الشريعة الإسلامية مكانا عظيما للأخلاق ، وتمهيد الفضائل والحط من شأن الرذائل بكل الوسائل الممكنة ، واستعمل لذلك أحكم أساليب الترغيب والترهيب اللذين هما ضروريان للجماهير .

فالأخلاق الإسلامية نابعة من الدين ، وهي جزء منه ، وهي الثمرة الحقيقية للعقيدة والعبادة ، والتدين الحقيقى يورث الأخلاق القويمة السديدة ، ولا دين بلا خلق ، والغاية القصوى من الدين الإسلامى حددها الرسول ـ ﷺ ـ بقوله : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ، فهي مؤسسة على رضى الله والقرب منه ، لأنها دينية قبل كل شئ .

وكان من أهم المميزات التى اتسمت بها التعاليم الأخلاقية المحمدية هذا التحرير التام للإنسان وتخليصه من العبودية أيا كان مصدرها : عبودية المال والجاه والقبلية

والأهل والولد ، بل ويشتمل ذلك أيضا العبودية لهوى النفس ذاتها ، وبذلك سلم الإنسان من أن يكون نهبه لشركاء متشاكسين كما عبر القرآن . الذى يبرز فى وضوح حقيقة المؤمن الموحد المتزن .

كان الرسول ـ ﷺ ـ إذن تجسيدا حيا لأخلاق القرآن ، ولقد صدقت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ حين سئلت عن خلقه فقالت : " كان خلقه القرآن " ومعنى ذلك أن صفات الكما ل التى رسمها القرآن ، والتى أنبأنا الله أنها موضع حبه وتقديره قد تجلت فى محمد ـ ﷺ ـ أقدس ما تكون ، ولما كانت هذه الصفات موضع حب الله ، كان التخلق بها مؤهلا طبيعيا لنيل رضا الله ، وهو أقصى ما يراد من السعادة وجد المسلمون فى القرآن الكريم وترجمته الحية المتمثلة فى سلوك الرسول ـ ﷺ ـ منبعثا ثرا للقيم والمثل الأخلاقية وتفاوتت فى تطبيق ذلك ومحاكمة أقدراهم فمنهم المقتصد ، ومنهم السابق بالخيرات بإذن الله ، ومنهم الظالم لنفسه ، حيث حرمها هذا الشرف ، وقد يثوب هذا الظالم إلى رشده ، ويعود إلى صوابه لتستقبله أبوا ب المكارم من جديد . فإنها لا تغلق فى وجه إنسان مهما أسرف على نفسه ، وكيف لا يراجع الإنسان نفسه و هو يسمع هذا النداء

الإلهي الحبيب : " قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا " .(١٢٦)

ومن الصحيح أن يقال أن الفترة التى سعدت فيها الأرض بالوجود المحمدى بعد الرسالة كانت فترة البناء الأخلاقى الكامل ، على مستوى الفرد ،وعلى مستوى الجماعة ولقد أثبت هذا البناء قوته ومتانته ، بقدر ما خاض من صراع ، تمثلت فيه كل ما يمكن أن يتصور من قوى الشر والخير . كما أثبت هذا البناء قدرة هائلة ونجاحا أكيداً ، تجاه الأحداث التى أحاطت به ،سواء كان ذلك تجاه المعارك والغزوات ، أو تجاه المواثيق والمعاهدات أو تجاه الغدر والخيانة وسائر الحماقات ، أو تجاه الدماء والحرمات ، كان هذا البناء الأخلاقى بناء حيا لا يقوم على الوصف والشرح والتحليل ، قدر ما كان يقوم على التجربة والتطبيق العملى الإيجابى لما رسمه القرآن من قواعد ومثل . (١٢٧)

ولقد سجلت هذه المواقف العديدة التى أثبتت جدارتها بالتأسيس والاقتداء : وعاها الناس فى ذاكرتهم أولا ، حاولوا التأسى بها ثانيا ، ثم دونوها حين خشوا عليها

---

(١٢٦) سورة الزمر آية ٥٣

(١٢٧) مدخل إلى الأخلاق محمد كمال جعفر ،ص ١٠٥ ، ط : ١ القاهرة ١٩٨٠ م

الضياع وحين جدت حركة التدوين ، وسمح فيها لغير القرآن بأن يكتب أو يسجل . فجمعت الأحاديث النبوية التى تعرض المثل الأخلاقية وتدعوا إليها ، كما جمعت السيرة المحمدية بما تتضمنها من هذه المواقف المشرفة للنبى ـ ﷺ ـ وصحابته رضوان الله عليهم .

فالأخلاق الإسلامية أصيلة فى مصدرها ، لأن مصدرها كما ذكرنا القرآن والسنة المطهرة والأخلاق الإسلامية أخلاق عملية لا تقبل الجدل فالقرآن الكريم حين يقدم الفضائل والواجبات الأخلاقية ، إنما يقدمها على أنها واجب النفاذ والنهوض بأعبائه وتكاليفه فورا ، لا على أنها نظريات قابلة للجدل أو المناقشة ، لأنها الحل الأمثل والكامل لكل ما يعترض الإنسان من مشكلات تحول بينه وبين خيرة وسعادته . كما ان أى تقصير فى تطبيقها على الوجه الذى رسمه الوحى يفقدها فعاليتها فى تحقيق ما ترمى إليه من إسعاد الإنسان فى دنياه وآخرته .

بهذا المعنى كانت الأخلاق الإسلامية أخلاقا عملية ، ودور الإرادة الإنسانية حيالها هو الإخلاص التام فى تطبيقها على الوجه الذى وردت به ، وعدم السماح لأى مصدر آخر

مزاحمة الوحى ، كسلطان وحيد لا يحب أن تدين الإرادة بالطاعة والولاء إلا له .

هذا هو الأساس الذى تنبنى عليه الأخلاق الإسلامية ، والمحور الذى تدور حوله كل تعاليم القرآن الكريم ، التى تؤكد هذا المعنى بوضوح قاطع لا لبث فيه ، يتضح هذا من قوله تعالى :" إن الحكم إلا لله ".(١٢٨)

شمولية الأخلاق فى الإسلام :

الحق إننا نرى الروح الأخلاقية سارية فى كل جانب من جوانب الإسلام

أولا : العقيدة وصلتها بالأخلاق فى الإسلام :

ففى جانب العقيدة ، يرتبط حسن الخلق بالإيمان ارتباطا وثيقا . وذلك يبدو واضحا من خلال القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، فإن مقتضى الإيمان بالله تعالى أن يكون المؤمن ذا خلق محمود ، وأن الأخلاق السيئة دليل على عدم وجود الأيمان ، أو دليل على ضعفه ،وعلى ذلك

---

(١٢٨) سورة الأنعام آية : ٥٧

يمكننا أن نعرف مدى إيمان الشخص بمقدار ما يتحلى به من مكارم الأخلاق ، ونعرف مدى ضعف إيمانه بمقدار ما يتصرف به من ذميم الأخلاق وفي ذلك يقول الشيخ محمد الغزالي :" إن الإيمان القوى يلد الخلق القوى حتما ، وأن إنهيار الأخلاق مرده إلى ضعف الإيمان أو فقدانه ، بحسب تفاقم الشر أو تفاهته " . (١٢٩) ويمكن القول أنه كلما كان حظ المرء من الإيمان بالله عظيما كلما كان حظه من الأخلاق كذلك . ومرجع هذا كله إلى ما يتضمنه الإيمان من الأخلاق حين يطلق فإنه يراد به كل أعمال البر ، ولقد سماه الحق تبارك وتعالى برا في قوله :"ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وأبن السبيل والسائلين ، وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾. (١٣٠)

---

(١) خلق المسلم ، الشيخ / محمد الغزالي ، ص ٩ : ط : القاهرة

(١٣٠) سورة البقرة آية : ١٧٧

والبر هو جماع خصال الخير ، فتخل فيه كل الأعمال الصالحة بقول الرسول ـ ﷺ ـ الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله ، وأدناها أماطة الأذى عن الطريق .(١٣١) ومن هنا صح القول بأن الإيمان إذا أطلق فإنه يراد به ما يراد بلفظ التقوى وبلفظ الدين .(١٣٢)

وأنواع البر كثيرة ، وتندرج جميعها تحت شعب الأخلاق وشعب الإيمان على السواء ما دام الإيمان هو الخير ، والخير هو الأخلاق ، ولما كان الإيمان بمعنى الخير كما فى حديث الشفاعة الصحيح الثابت عن الرسول ـ ﷺ ـ " يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان " وفى بعضها " مثقال ذرة من خير " وهذا مطابق لقوله تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ﴾ ومثقال الذرة من الخير هو مثقال الذرة من الإيمان " (١٣٣) ولما كان الخير يعم جوانب الأخلاق ، ومنها الصدق فكثيراً ما يوصف المؤمنون بالصدق ، والمنافقون بالكذب ، فجاء وصف المؤمنين بالصدق فى قوله تعالى :﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله

---

(١٣١) ذكره شيخ الإسلام بن تيمية فى كتاب الإيمان ، ص ٣٤ ، وفى رواية البيهقى " بضع وستون أو بضع وسبعون وذكر أن الحافظ قال أن الرواية الصحيحة رواها أحمد فى مسنده ومسلم .

(١٣٢) العقيدة والأخلاق ص ٢١٠

(١٣٣) السابق ص ٣١٢ ، كتاب التاج ٣/٥ كتاب الأخلاق

ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هو الصادقون ﴾[١٣٤] وجاء وصف المنافقون بالكذب فى قوله تعالى : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد أن المنافقين لكاذبون ﴾.[١٣٥] وطالما كان الإيمان هو البر وهو الخير ،فإن من تعرى عن البر والخير فقد تعرى عن الخلق . وكأنما الانسلاخ عن الخلق انسلاخ عن الدين ، وكأن الدين هو التحلى بالخلق ومن هنا قال ـ ﷺ ـ : " الدين حسن الخلق ".[١٣٦]

وهكذا رأينا الإيمان عند إطلاقه يتناول أعمال البر والخير ، وعندئذ برزت جوانب الأخلاق واضحة فيه بهذا الإطلاق .

وعندما يطالب القرآن اتباعه بالعدل ، يذكر قبل الطلب وصف الإيمان للإشارة إلى ان الإيمان يقتضى العدل فيقول : ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ولا

---

(١٣٤) سورة الحجرات آية : ١٥

(١٣٥) سورة المنافقون آية : ١

(١٣٦) قال الحافظ العراقى فى هامش الأحياء ٢/٥٠ ، أخرجه العروزى فى مسنده كتاب تعظيم قدر الصلاة .

يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، إعدلوا هو أقرب للتقوى ، وأتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ . (١٣٧)

وحين يأمرنا الحق بالتقوى ، وهي معيار الفضل والاستحقاق فى الإسلام فإنه يغرينا بالخير العميم والعون والمساندة فيقول :" ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ (١٣٨) وقوله : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾.(١٣٩)

وتتضح تلك الصلة بين الأخلاق والإيمان أيضا فى أقوال الرسول ـ ﷺ ـ حيث يقول : " أكمل المؤمنون إيماناً أحسنهم أخلاقا " (١٤٠) وقوله : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " . (١٤١) وقوله : " من كان يؤمن

---

(١٣٧) سورة المائدة آية : ٨

(١٣٨) سورة الطلاق آية : ٢-٣

(١٣٩) سورة الأعراف آية : ٩٦

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب السنة باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ، والترمذى فى الرضاعة " باب ما جاء فى حق المرأة ، ٤٦٦/٣

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ١٠/١ ك: الإيمان

بالله واليوم الأخر فلا يؤذ جارة [١٤٢] وقوله :" ما من شئ اثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق ". [١٤٣]

فالمؤمن دائما يسعى إلى مكارم الأخلاق يتحلى بها ، وإلى محاسن السجايا يتصف بها ، حتى يكتمل إيمانه ، ويثقل ميزانه يوم القيامة . وقد فهم الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ذلك فحرصوا عليه . عن أم الدرداء قالت : قام أبو الدرداء ليلة يصلى ، فجعل يبكى ويقول : اللهم أحسنت خَلقى فحسن خَلقى ـ حتى أصبح ، فقلت : يا أبا الدرداء ، ما كان دعاؤك منذ الليلة إلا فى حسن الخلق ، فقال : يا أم الدرداء ، إن العبد المسلم يحسن خلقه حتى يدخله حسن خلقه الجنة ، ويسئ خلقه حتى يدخله سوء خلقه النار ، والعبد المسلم يغفر له وهو نائم ، فقلت يا أبا الدرداء كيف يغفر له وهو نائم ؟ قال : يقوم أخوه من الليل فيتهجد فيدعو الله عز وجل فيستجيب له ، ويدعو لأخيه فيستجيب له فيه " [١٤٤]

وهكذا يمضى رسول الله ـ ﷺ ـ فى غرس الفضائل وتعهدها حتى تؤتى ثمارها ، معتمدا على صدق الإيمان

---

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب " باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر " ٤/٥٤

(٤) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب باب فى حسن الخلق والبخارى فى الأدب المفرد ١/٣٦

(١٤٤) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد ١/٣٨٧

وكماله ، على أن بعض المنتسبين إلى الدين ، قد يستهلون أداء ـ العبادات المطلوبة ، ويظهرون فى المجتمع العام بالحرص على إقامتها وهم يرتكبون أعمالا يأباها الخلق الكريم والإيمان الحق .

أن نبى الإسلام توعد هؤلاء الخالطين ، وحذر أمته منهم ، ذلك أن التقليد فى أشكال العبادات يستطيعه من لم يشرب روحها أو يرتفع لمستواها ، وفى هذا ورد عن النبى ـ ﷺ ـ أن رجلا قال له : يا رسول الله ، إن فلانه تذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها غير أنها تؤذى جيرانها بلسانها فقال : " هي فى النار " ثم قال :يا رسول الله فلانه تذكر من قلة صلاتها وصيامها وأنها تتصدق بالاثوار من الإقط ـ بالقطع من الحبن ـ ولا تؤذى جيرانها قال : " هي فى الجنة " .(١١٥)

فى هذه الإجابة تقدير لقيمة الخلق العالى " إن رسول الله ـ ﷺ ـ لم يكتف بإجابة على سؤال عارض فى الإبانة عن ارتباط الخلق بالإيمان الحق ،وارتباطه بالعبادة الصحيحة ،وجعله أساس الصلاح فى الدنيا والنجاة فى الآخرة

---

(١١٥) سبق تخريجه .

إن أمر الخلق أهم من ذلك ، ولابد من إرشاد متصل ونصائح متتابعة ليرسخ في الأفئدة والأفكار ، إن الإيمان والصلاح والأخلاق ، عناصر متلازمة متماسكة ، ولا يستطيع أحد تمزيق عراها .

وتقريراً لهذه المبادئ الواضحة في صلة الإيمان بالخلق القويم يقول الرسول ـ ﷺ ـ :" ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وحج واعتمر وقال إني مسلم إذا حدث كذب وإذا أوعد أخلف وإذا أؤتمن خان ".(١٤٦)

وقد يطلق الإيمان أيضا فيتناول فعل الواجبات والمحرمات ، وإذا كانت الواجبات هي أوامر الله ورسوله ، والمحرمات هي ما نهي عنه الله ورسوله ، و الأوامر لا تكون إلا بالخير والنواهي لا تكون إلا عن الشر ، وتلك غاية الأخلاق ، وما تدعوا إليه .

فلقد أمر الله بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ونهي عن الفحشاء والمنكر والبغى وأمر بالوفاء بالعهد في آية من كتابه فقال : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الأدب ١٠/٥٠٧ .

تذكرون وأوفوا بعهـــد الله إذا عاهـــدتم ولا تنقضـوا الإيمـان بعـد توكيـدها وقد جعلتـــم الله عليكـم كفيـلا إن الله يعلـم مـا تفعلـون ﴾(١٤٧)

والإيمان يحث على بر الوالديـن وحسـن معاملتـهم : قـال تعالى :﴿وقضى ربـك ألا تعبـدوا إلا إيـاه وبـالوالدين إحسـانا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهمـا فـلا تقـل لـهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريمـا ﴾ (١٤٨) وللأيمـان كذلـك مجالـه فى أدب النفس ومراعاة شـعور الغـير قـال تعـالى : ﴿ يـاأيـها الذين آمنوا لا يسخر قـوم مـن قـوم عسـى أن يكونـوا خـيراً منهم ولا نساء مـن نسـاء عسـى أن يكـن خـيرا منـهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابذوا بالألقـاب بئـس الأسـم الفسـوق بعـد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هـم الظـالمون ﴾.(١٤٩)

ويؤكـد القـرآن الكريـم أن مـن الأخـلاق الإيمانيـة ألا تبخس الناس أشـياءهم وأن توفيـهم حقـهم ، وأن الفسـاد فـى الأرض يتنافى مع أخلاق الإيمان قـال تعـالى : ﴿ فـأوفوا الكيـل

---

(١٤٧)سورة النحل آية : ٩٠-٩١

(١٤٨) سورة الإسراء آية : ٢٣

(١٤٩) سورة الحجرات آية : ١١

والميزان ولا تبخسوا النـــاس أشـــياءهم ولا تفســـدوا فـــى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتـــم مؤمنيـــن ﴾ .(١٥٠)

وكذلك كان النهي عن الكبر والأمـــر بـــالتواضع والاعتـــدال وغض الصوت من الأخلاق الإيمانية قـــال تعـــالى : ﴿ ولا تصعـــر خدك للناس ولا تمشـــى فـــى الأرض مرحـــا إن الله لا يحـــب كـــل مختار فخور ، وأقصد فـــى مشـــيك وأغضـــض مـــن صوتـــك إن أنكر الأصوات لصـــوت الحمـــير ﴾ .(١٥١)

وهكذا بعد تدبر الآيات والأحاديث النبويـــة نجـــد الأوامـــر كلها لا تخرج عن الخـــير ، وأن النواهـــي كلـــها لا تخـــرج عـــن الشر . فتوحيد الله تعالى ، والجهاد فـــى ســـبيله ، والدعـــوة إلـــى الخير ، وبر الوالدين ، والوفـــاء بـــالكيل والمـــيزان ، والعـــدل ، والصـــدق ، والصـــبر والوفـــاء بالعـــهد والاســـتقامة ، والحلـــم والطـــهر ، والأخـــلاق والتواضـــع ، وحفـــظ الأعـــراض ، وآداب الاستئذان والاحتشام والإحســـان ، وهكـــذا ســـائر الأوامـــر كلـــها دعوة إلى الفضيلة والأخـــلاق العاليـــة .

---

(١٥٠) سورة الأعراف آية : ٨٥

(١٥١) سورة لقمان آية ١٨-١٩

والشـرك ، والقتـل ، والظلـم ، والكـبر ، والكـذب ، والنفاق ، والبخل ، والأسراف، والريـاء والتفـاخر ، والحسـد ، والطمـع ، والخبـائث ، والفحـش ، والانحـراف ، وسـائر ، الأمور التى نهي عنها ، وحرمها نجدها كلها شـر لا تتفـق مـع الفطرة المستقيمة والخلـق السـوي .(١٥٢)

ومن كل ما سـبق يتضـح مـدى العلاقـة الوثيقـة بيـن الإيمـان والأخـلاق . فالكمـال الأيمـانى لا يكـون إلا بحسـن الخلـق ، ولذلـك يقـول الرسـول ـ ﷺ ـ " أكمـل المؤمنيـن إيمانا أحسنهم أخلاقـا " .(١٥٣)

ثانيا : العبادات وصلتها بالأخلاق فى الإسلام :

العبادات التى شرعت فـى الإسـلام ، واعتـبرت أركانـا فى الإيمان به ليست طقوسـا مبهمـة مـن النـوع الـذى يربـط بالغيوب المجهولة ، ويكلفه بـأداء أعمـال غامضـة وحركـات لا معنى لها ، كلا ، فالفرائض التى ألزم الإسـلام بـها كـل منتسـب إليه هـي تمـارين متكـررة لتعويـد المـرء أن يحيـا بـأخلاق

---

(١٥٢) العقيدة والأخلاق ص ٣٢٢

(١٥٣) صحيح المستدرك للحاكم النيسابورى ١/٥٠

صحيحة ، وأن يظل مستمسكا بهذه الأخلاق ، مهما تغيرت أمامة الظروف .

أنها أشبه بالتمارين الرياضية التى يقبل الإنسان عليها بشغف ملتمساً من المداومة عليها عافية البدن وسلامة الحياة .(١٥٤)

والأخلاق تعتبر بمثابة النتيجة والثمرة المترتبة على قيام المرء بهذه العبادات المفروضة عليه ، والقرآن الكريم والسنة المطهرة يكشفان عن هذه الحقيقة فالصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر ، قال تعالى : ﴿وأقم الصلاة ،إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر ﴾(١٥٥) فالابتعاد عن الرذائل ، والتطهير من سوء القول وسوء العمل هو حقيقة الصلاة .

ويقول الحق تبارك وتعالى فى حديثة القدسى : " إنما اتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ، ولم يستطل بها على خلقى ،ولم يبت مصرا على معصيتى ، وقطع النهار فى ذكرى ، ورحم المسكين وابن السبيل ، والأرملة ، ورحم المصاب ، ذلك نوره كنور الشمس ، أكلؤه بعزتى ،واستحفظه

---

(١٥٤) الفكر الأخلاقى دراسة مقارنة ، محمد عبد الله الشرقاوى ص ١٢٧ ط: ١٩٨٨ نقلاً عن خلق المسلم

(١٥٥) سورة العنكبوت آية : ٤٥

بملائكتى ، أجعل له فى الظلمة نـورا ، وفـى الجهالـة ، حلمـا ، ومثله فى خلقى كمثل الفردوس فـى الجنـة " .(١٥٦)

فالحق تبارك وتعـالى يتقبـل الصـلاة ممـن أثمـرت فيـه تواضعا ورحمة وخلقا طيبا أما ذلك الشـخص الـذى لـم يسـتفد من صلاتـه خلقا كريمـا ، فإنـه بعيـد عـن الله ،وبعيـد عـن الإيمان ، وقد أشار إلى ذلك رسول الله فـى حديثـه : " مـن لـم تنهه صلاتـه عن الفحشاء والمنـكر ،لـم يـزداد مـن اللـه إلا بعـدا " .(١٥٧) ذلـك لأن الـشـأن فـى الصـلاة تكفـير الخطايا ومحو السينات ، وتطهير المسـلم ، لـم أولا بـأول مـن سوء الأخـلاق .

والصـوم يـهذب النفـوس ويخلصـها مـن الأمـراض النفسية ، كقول الزور والعمل به فمـن لـم يـترك قـول الـزور والعمل به فليس له من صيامه إلا الجـوع والعطـش ، مصـداق ذلك قول الرسول : ـ ﷺ ـ:"الصيام جنـة ،فـإذا كـان أحدكـم صائما ، فلا يرفث ولا يجـهل ، فـإن امـرء قاتلـه ، أو شـاتمه ،فليقل إني صائم ، إنـي صـائم " .(١٥٨)

---

(١٥٦) التحفات السنية بالأحاديث القدسية ، ص ١٣ رواه البزار عن بن عباس

(١٥٧) رواه بن أبى حاتم ، والطبرانى عن بن عباس فى الجامع الكبير ٨٣٣/١

(١٥٨) رواه أبو داود فى سننه كتاب الصوم باب الغيبة للصائم ٧٦٧/٢

فأنظر كيف يبين رسول الله ـ ﷺ ـ أن الصوم وقاية للمسلم من الأخلاق الذميمة ، وكيف نصح الرسول الصائم بالا يتكلم الكلام الفاحش ، ولا يفعل الفعل القبيح ، فإن اعتدى عليه إنسان فليقل له ، وليقل لنفسه أيضا ،إني صائم وصومي يحجبني عن سوء الخلق ،وعن مقابلة السيئ بالسيئ " .(١٥٩)

والقرآن الكريم يذكر ثمرة الصوم المتمثلة في تقوى الله تبارك وتعالى .يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ .(١٦٠)

فلم ينظر الشرع إلى الصوم على أنه حرمان مؤقت من بعض الأطعمة والأشربة بل اعتبره خطوة إلى حرمان النفس دائما من شهواتها المحظورة ونزواتها المرفوضة .

والزكاة تطهر النفس من الشح ، وتنمي في الإنسان روح التضامن والتكافل الإجتماعي بتطيم المسلم الرحمة

---

(١٥٩) العقيدة والأخلاق ص ١٦٣ ط ١ ١٩٨٦

(١٦٠) سورة البقرة آية : ١٨٣

والرأفة بإخوانه المحتاجين ، قال تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ (١٦١)

أى خذ من أموال المؤمنين صدقة محدودة ، هي الزكاة المفروضة ، أو غير محدودة ، وهي صدقة التطوع ، تطهرهم بها من الأخلاق الذميمة ، كالبخل ، والطمع ، والقسوة ، وتزكى بها أنفسهم وتسمو بها إلى الخير .

فالزكاة ليست ضريبة تؤخذ من المرء ، بل هي غرس لمشاعر الحنان والرأفة ، وتوطيد لعلاقات التعارف والألفة بين طبقات المجتمع ، فتطهير النفس من أدران الشح ، والتسامى بالمجتمع إلى مستوى أنبل هو الحكمة الأولى ، والهدف الأسمى من فريضة الزكاة .

ومن أجل ذلك وسع النبى ـ ﷺ ـ فى دلالة كلمة الصدقة التى ينبغى أن يبذلها المسلم ، فلم يجعلها قاصرة على بذل المال فقط ، بل جعلها تشمل أمورا عديدة تظهر فى قوله : " تبسمك فى وجه أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل فى أرض الضلال

---

(١٦١) سورة التوبة آية : ١٠٣

لك صدقة ، وإماطتك الأذى ، والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك فى دلو أخيك صدقة » .(١٦٢)

والهدف والغاية من فريضة الحج لا تخرج عن التحلى بمكارم الأخلاق ، والتخلى عن سيئها من الرفث والفسوق والجدال ، قال تعالى : ﴿ الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب ﴾ (١٦٣) لذلك كان جزاء من حج وتجنب الرفث والفسوق والجدال ، أى تجنب مزموم الأخلاق ، أن يمحو الله سيئاته ويرفع درجاته ، ويرجع طاهرا نقيا كيوم ولدته أمه ، ومصداق ذلك قول الرسول — ﷺ — : « من حج فلم يرفث ولم يفسق ، رجع كما ولدته أمه » .(١٦٤)

وهكذا وضح لنا هدف العبادات التى شرعها الله للإنسان المسلم ، هو السمو الخلقى للإنسانية ، لكن هذه العبادات إذا لم تلازمها وتقترن بها أخلاق حميدة ، وسجايا

---

(١٦٢) الترغيب والترهيب ، للمنذرى ٤٢٢/٢ ، رواه الترمذى وحسنه .

(١٦٣) سورة البقرة آية : ١٩٧ .

(١٦٤) رواه مسلم فى صحيحه ، كتاب الحج ، باب فضل الحج والعمرة ٩٨٤/٢ .

كريمة تصبح لا فائدة فيها ولا جدوى منها ، ومصداق ذلك قول الرسول ـ ﷺ ـ لصحابته : " أتدرون من المفلس قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع " فقال : "إن المفلس من أمتى يأتى يوم القيامة بصلاة ، وصيام ، وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا ، وأكل مال هذا وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار " .(١٦٥)

فهذا الإنسان وإن كان قد أدى هذه العبادات ، لكنها اقترنت ببعض الرذائل الخلقية ، من سب وشتم ، وقذف ، وظلم ، واعتداء على حقوق الآخرين ، فكانت نهايته الخسران فى الآخرة .

وقريب من ذلك قول الرسول ـ ﷺ ـ : " حينما قال له رجل يا رسول الله ، إن فلانه تكثر من صلاتها ، وصدقتها ، وصيامها ، غير أنها تؤذى جيرانها بلساتها ؟ قال : هي فى النار" .(١٦٦)

---

(١٦٥) رواه مسلم فى كتاب البر والصلة والأدب ٤/٩٩٧

(١٦٦) رواه أحمد والبزار وبن حبان فى صحيحه والحاكم ، وقال صحيح الإسناد .

فهذه المرأة تكثر من صلاة النافلة ، ومن صدقه التطوع ، ومن الصيام المستحب ، ومع ذلك فقد أخبر الرسول ـ ﷺ ـ بأنها ستدخل النار ، لأن هذه العبادات الكثيرة ، لم يصحبها خُلق حسن ، إنما كان معها خلق نميم ، وهو الإساءة إلى جيرانها بلسانها ، وهذا يتنافى مع حسن الخلق .

فإذا نمت الرذائل فى النفس ، وفشا ضررها ، وتفاقم خطرها ، انسلخ المرء من دينه كما ينسلخ الإنسان من ثيابه ، واصبح ادعاؤه للإيمان زورا ، فما قيمة دين بلا خلق ، وما معنى الإفساد مع الانتماء لله؟ وقد روى عن النبى ﷺ ضرب لهذه الحالات مثلا قريبا قال : " الخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد ، والخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل ". (١٦٧)

هذا العرض السريع لبعض العبادات التى جاء بها الإسلام وعرفت على أنها أركانه الأصلية ، نستبين منه متانة الأواصر التى تربط الدين بالخلق ، إنها عبادات متباينة فى جوهرها ومظهرها ، ولكنها تلتقى عند الغاية التى رسمها الرسول فى قوله :"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " .

---

(١٦٧) رواه البيهقى

وفى روح المعاملات نجد الروح الأخلاقية سارية فيها ، وفى جانب الفضائل والقيم نجد أن الإسلام قد اشتمل على معالم النظام الأخلاقى الكامل ، فوضع الفضائل وحث عليها ، وبين الرذائل ونهي عنها

ويمكن القول على وجه الإجمال أن الإسلام نظام خلقى وضع من أجل مصلحة الإنسان وتحقيق السعادة له ، لا فى هذه الحياة وحدها ، بل وفى الحياة الأخرى أيضا .

وهكذا منهج عام يشيع فى الإسلام على نسق واحد فى تقديمه للواجبات يكاد يكون مطردا فى كل أمر ونهي ، بل أن المرء ليزداد إعجابا وإكبار للمنهج الذى رسمه الإسلام فى الدعوة إليه ، وما يتسم به هذا المنهج من طابع اخلاقى رفيع تشيع فيه روح المحبة والإخاء حين يقدم لنا القرآن الكريم هذا المنهج كواجبات محددة قاطعة فى قوله تعالى :﴿ ادعوا إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هي أحسن ﴾.(١٦٨)

هذه هي طبيعة الأخلاق الإسلامية ، أخلاق عملية ، على المسلم الالتزام بتطبيقها لأنها الحل والأمثل لكل ما

---

(١٦٨) سورة النحل آية : ١٢٥ .

يعترض طريقه نحو تحقيق سعادته ، كما أنها الإشباع الحقيقى لحاجات الإنسان العقلية والروحية والجسدية .

وبعد،،

فهذا ما هدانى الله تبارك وتعالى إليه فى بحثى هذا ، فإن كنت قد وفقت فذلك بفضل الله تعالى وتوفيقه ،وإن تكن الأخرى فعذرى اننى بشر أخطئ وأصيب والكمال لله وحده ، وحسبى ما ابتغيت إلا وجه الحق والصواب

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الكرام

دكتور

محمد المهدى